قدري قلعجي

أعلام الحرية
٩

ابو ذر الغفاري

أول ثائر في الإسلام



دار العلم للملايين

قدري قلعجي

ابو ذرّ الغفاري

اول ثائر في الاسلام

اعلام الحرية ٩

« ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر »

حديث شريف

مقدمة

بقلم الاستاذ عبد الله العلايلي

●

هذه الصِلات — التي تنعقد بيننا وبين الأحياء ، وتعمل فيها عاطفة من الحب ، او أخرى من الهوى المَقِيت ، ونحسها حيناً مشبوبة فائرة ، وحيناً خابية فاترة — لعلها ليست وقفاً على من نعايشهم ، او يقعون لنا عند منزلة من منازل العمر .

فكثيراً ما نُصيب هـذا الحس وبوضوحه ايضاً ، حيال أشياء : بعضُها من الطبيعة الصامتة ، وبعضها من الحياة التي اضحت حكاية او اسطورة .

وكثيراً ما ننطوي من هذا الحس على آثار حرارة حية .. فيها من الاعصاب وفيها من الدماء وفيها من الخلجات ما يدفع بظنك بعيداً ، عن أنك من الطبيعة الجامدة امام معنى الجماد فيها ، وأنك من التاريخ امام الماضي في رجعة الذكرى .

بل تحس وبنصيب كبير من الواقع ، أنك الى هـذا وهذا ، في مستوى من لحظة حية .. لا تنحدر فيها نبضة عن

2272

نبضة ، ولا تسقط فيها رجفة دون صدى او رجع ...

وحكاية هذا الحس ، هي حكاية الصلة التي وجدتُني يوماً ، مشدوداً بهـا الى « ابي ذر » .. الشخصيةِ المحبّبة لعهدك بها ، المعْجِبة حتى لكأنها أتت تعبير النُبل في دنيـا الضَراوة المستهترة ، ونزلت من مجتمعها منزلة القلب المتفتح بكل مـا تشاء : من رفّة حب ، ونفحة خير ، وتطرية جمال .

وملامح شخصيته مـا اتفق لها أن تجتمع في خاطري القريب او أن تعبر مجازه ، إلاّ صحوتُ على ملامح القيم الانسانية العليا في صراعها واطمئنانها .. وإلا صحوت فوق ذلك ، على ان الروح الانساني « الكل » كثيراً ما يجعل في بعض الناس ابجديته ويطـل من بعض الوجوه ، مشيراً .. الى ان هذا إنسان يعرف الطريق.

لابي ذر هذا ، لون من الحياة هو اكـثر استهواء من الحقيقـة .

ولا تحسب انني اعني ، أن حياتـه بألوانها لم يحملها لحم ودم ، ولم تسعَ على أرض الناس وبمثل تكاليفهم .

وانما اعني أنه رجـل استحيى رموزه وعاشها ، فكانت له دنيا ... وكانت له طبيعة .

وهو بذلك ، بات غريباً في مدى ما تفكر به الشهوة ، او قل أسطورة في مدى ما يحلم به المستنقع .

على أنني افهم التاريخ ، أنه تعبير الاحياء عن حركاتهم .. وافهم الاسطورة — اية اسطورة — أنها تعبـير الروح الحي

عن ذاتـــه .

فأحب لذلك ، أن افهم الاحياء الذين لبثوا دهرهم مظاهر حقيقية لهذا الروح ، أنهم اساطير انسانية اي ينابيع رموز ، وموئل استلهام ، ومثابة استشفاف .

وأحب لذلك ايضاً ، أن اضم الى نفسي حكاية حيـــاة ابي ذر ، شيئاً مثل اسطورة ، اتسعت لمثاليات ضاق عنها تاريخ .

لقد شقي كثيراً ، وكان مغتبطاً في أن يقدم للناس لَبِنات خيّرة لبناية مجتمعهم .. ولكنّ الأطلال الاحيـاء ، رأت في حجارته ما يفضح حجارتها .. فاستدارت دونه تأخذ عليه الدروب .. وهو وإن انقلب عائداً مولّياً لدنيا الاطلال ظهره ، فقد ترك على ألحاظها معنى احتضار الغد .

كلما ذكرت ابا ذر ، ذكرت شخصاً آخر ، ذكـرت « ديوجين » .. ولست ادري سر هذا التوارد ، ولعله لتجاور باطني لهما عندي ، او لعله لاكثر من ذلك .. لاعماق بينهما تلاقت في مجرى الينبوع ، او لانهما الثملان بالكأس الواحدة. انطوى ثانيهما على نفسه انطواءه على النشوة الحالمة ، ولذتها في أحلامها .

وهتف اولهما هتاف النشوة المكتشفة ، ولذتها في الاعلان عن انها اكتشفت ، عن أنها رأت هناك – وراء السراب – طيور المـــاء .

كلما تمثلت كبرياء مثالية ابي ذر وكبرياءه بها ، تمثلت سيماءها على وجه « ديوجين » .. هذا يحلم بالجنـــين ، وذاك

يهتف بالخاص .

وبينهما ايضاً ، أن احدهما كان عبارة المدنيـــة المعقدة • وثانيهما كان عبـارة الصحراء .. والصحراء اطمئنان عميق ، كان عند ابي ذر في مظهر الايمان ... وعـاصفة ثائرة ، كانت عنده في مظهر النضال ..و ظمأ لاغب ، كان عنده في مظهر الرغبات الرفيعة التي لا تفتأ تتطلع بقلق الى فوق ...

يخلبني في ابي ذر إيمانه : إيمانه بالمبادىء ، وإيمانه بنفسه .. فقـد كان من نوع يجعـل المرء لا يرى شيئاً في حـــدود الايمان ، ويرى الايمان في حدود كل شيء .. كتلك الفراشة التي أسلمها المصباح اليه ، فهي لا تحوُل عنه وإن كان في ذلك أنها تحول عن الحياة .

وبذلك صغرت الدنيا والحياة وفكرة متاعهما في قلبه ، فهذا الايمان لا يزال يعمل عمله ، حتى يجعل في الغرائز عقلاً ، وفي الشهوات ارادة واخلاقاً .

وحتى الرغبات الدنيا ، تصبح دنيا بمعنى جديـــد .. فهي لا تنبعث في مساقٍ من شهوة الجسد ، بـــل في مساق من شهوة الروح المركـّزة بالايمان ، وإن شهوة الروح الشعورُ بذاتيتها العليا في الفطرة والاخلاق والاجتماع .

لقد كانت نفس ابي ذر مؤمنة ذات آفاق في الايمان ، فكانت بذلك قوية ذات آفاق في القوة ..

ومجتمعنا العربي لعله اليوم أحوج منه في اي يوم مضى ، الى رسالة حرة توقظه على ذاته وتدله على حقيقته .

فانا كلما تأملته تمثلت فيه شبح أحـدب عجوز ، مشى التاريخ الذليل في اخاديد وجهه ، وبرز ناطقاً بجرجرة الاغلال.

هذه الرسالة الحرة التي ينهض بعبئها ، معلم من معلميها الابرار عندنا . . شاء ان يعرضها في الوان من الشعوب ، ليقول : إن الحرية لا تقوم في لون دون لون .

وشاء أن يلملم أعلامها من كل مكان في دروب الاجيال ، ليقول : إن لحن الحرية الذي انبعث حنينـاً من الازل ، يجد نداء الحنين في رجع الابد . . ثم لا تقطع منه ، الحان الفحيح – مهما علت – على فم الغاب .

لقد كانت الاهابة بهذا المجتمع العربي على نهج ابي ذر ، اي ايماناً برسالة الحق ، اي تحدياً ، اي لا هوادة – امنية نفس بت اتحرى فجرها . . وفي هـذا الكتاب اطلالة من ذلك الشعاع .

وللحق اقول : إن هذا الكتاب هيأ لي لحظـة كبيرة سخية ، عثرت فيها على ذاتي ، على قيم ذاتي التي تتحدى كل شيء – الزمن ، باطل الزمن – ثم تبقى .

والذين يعرفون كيف يصنعون ما يصنعون ، من ذاتهم . . يمشون بالحياة على اساطير الفناء .

اما الذين يجهلون ، فانهم اجساد فقط ، والجسد قبر يسعى .

نحن من هذا المجتمع ، في حاجـة الى ان لا نلقي بين فئاته افكار سلم بليد ، يكون سبيلاً الى الاستسلام ، الى فقد الشخصية . . بـل ناراً كنار ابي ذر او كنار موسى التي

تراءت له « في الوادي المقدس طوى » .

هذه النار التي تملأ بها ، ورجع وجذوتها المشتعلة في عقله ونفسه ويديه . . ولقد مس بها أوضاع شعب ونظمه وافكاره ، فاشعلها جميعاً كحطام بالية .

ووقف ينظر ناعماً مطمئناً ، وهي تستحيل الى رماد تبعثره الريح بيد الاعصار .

عبد الله العلايلي

تاريخ جديـد

•

في تلك الأيام التي وقفت فيها بلاد العرب على منعطف من التاريخ ...

بينما كان المستضعفون في مكة يتحدثون متهامسين عن دين جديد يدعو الى حياة جديدة .. والتجار والمرابون والنخاسون وسدنة الكعبة يتنادون الى مجابهة خطر يوشك ان يتهدد شرائعهم وامتيازاتهم ، وقد لمحوا بوادره في البريق الذيأخذ يلتمع في عيون العبيد والموالي والاعراب والعامة من الناس ، وعهدهم بها عيوناً أرمضها الجهل وأذواها الفقر وأذلتها العبودية ...

وبينما كان المسلمون السابقون يجتمعون بالنبي في الخفاء ، اذا أظلّهم الليل وأمنوا عيون الرقباء ومداهمة الخصوم ، لا يجرأون على الجهر بدعوتهم مخافة أن يصيبهم ، وما اكثر ما أصابهم ، أذى الطغمة الحاكمة التي ايقنت ان هـذه الدعوة لن تكتفي بتحطيم الأصنام التي حملوا الناس على عبادتها لاستغلال هذه العبادة ، وانما ستحطم الأوثان الفكرية والاجتماعية التي يعبدونها مع تلك الاصنام .

في تلك الأيام التي كانت تتمخض بالصراع العنيف بين قوى مسيطرة شاع الفساد والانحلال في نظامها العتيق ، وقوى فتية

نامية تحمل الى المجتمع نظاماً جديداً ودماً جديـــداً ، وتحمل الى الانسان ثقة جديدة بالحق والعدل والمساواة - هبط مكة ذات صباح حار من ايام الخريف ، رجل طويل القامة نحيف البنية اسمر اللون خفيف العارضين ، يعتمر بعمامة سوداء وتلف جسمه النحيل عباءة مهلهلة ممزقة ، وجعل يطوف في اسواقها واحيائها دون ان يتحدث الى احد لانه لم يكن ليعرف فيها أحداً ، ولكنه كان يصيخ السمع الى كل حديث ، ويتفرس في كل وجـه ، ويهم بان يستوقف كل من يمر به ثم لا يفعل ، كأنه يكره ان يبتدر الناس بسؤال يعتلج في صدره ، أو كأنه يخشى مغبة هذا السؤال ..

فلما كان المساء اضطجع ذلك الرجل الغريب غـــير بعيد عن الكعبة ، فبصر به عليّ بن ابي طالب وهو في طريقـه الى المنزل ، فقال : « كأن الرجل غريب ! » فقال الرجـل : « نعم » قال : « انطلق معي الى المنزل » . فانطلقا لا يسأله عليّ عن شيء ولا يسأله الرجل شيئاً . فلما أصبح الرجل من الغد فارق عليـــاً ولم يعرف احدهما شيئاً من امر الآخر .

وعاود الرجل الغريب شأنه ذاك في اليوم الفائت ، ولم يكن ليملك شيئاً من مال ليشتري به طعاماً ، وقد نفد منذ أمسه الزاد القليل الذي استطاع ان يحمله معه ، فألحّ عليه الجوع كما نال التعب منه .. واذا بعليّ يراه في المساء حيث التقاه في الليلة السابقة ، وقد بـــدا تحت جنح الظلام بقامته العجفاء وعباءته المهلهلة ووجهه الضاوي ، كأنه شبح يمثل الحياة البائسة التي كانت تحياها في ضواحي مكة القبائل التي شح عنها الخير وحاق بها الضيق ، والتي كان الفقر يحمل

اكثر افرادها إما على الهرب الى الصحراء للالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق واما الى الدخول في طبقة الأرقاء. فقال عليّ: «أما آن للرجل ان يعرف منزله..؟» ثم أنهضه وذهب به معه، دون ان يحرجه بسؤال، ولم يطمئن اليه الرجل كل الاطمئنان فيفضي اليه بأمره.

حتى اذا كان اليوم الثالث، ومر عليّ بالرجل عند المغيب، فوجده، سار به الى منزله مرة اخرى ولكنه لم يملك نفسه هذه المرة فقال له: «ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟». فقال: «ان اعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت» فوعده عليّ ان يكتم أمره وان يهديه الى ضالته ان كان له سبيل اليها...

فلما وثق به الرجل قال: «بلغنا انه بعث ههنا نبي يدعو الى الخير وينهى عن المنكر، فقلت لأخ لي: اركب الى هذا الوادي واعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم انه يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني! فانطلق حتى قدم مكة وسمع من قوله، ثم رجع اليّ فقال: رأيته يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوصي بمكارم الاخلاق، وسمعت منه كلاماً ما هو بالشعر ولكنه أجمل من الشعر! فقلت له: ما شفيتني فيما أردت. وتزودت من فوري، وحملت قربة لي فيها ماء، وأقبلت الى هنا فأتيت المسجد التمس هذا الرجل وأنا لا أعرفه وأخشى ان اسأل عنه!».

أضاء وجه عليّ بن ابي طالب، وتفرس في محدثه قليلاً ثم سأله: «من انت، ومن اين انت قادم؟» فاجاب الرجل: «اسمي جندب بن جنادة، واكنى اباذر، وقبيلتي غفار!» فقال علي: «أما انك قد رشدت، فورب الكعبة انه لنبي، وانه ما جاء الا

بالحق ، ولقد أفك قوم كذبوه وظاهروا عليه ، وهذا وجهي اليه فاتبعني ، وادخل حيث أدخل ، فان رأيت أحداً أخافه عليك دنوت من الحائط كأني أقضي حاجة ، فامض انت »

وانطلق الرجلان تحت جنح الليل حتى وصلا الى دار عند الصفا ، فطرق عليّ الباب طرقاً ضعيفاً خاصاً ، فنظر رجل من خلل الباب حتى اذا عرف علياً فتح له فدخل ورفيقه ، فوجدا محمد بن عبدالله ...

وتعرف ابوذر بالرسول ، فرأي فيه الجلال الرائع والنفس الصافية والمزاج السليم والمهابة التي تبعث على الخشوع ، وعرف فيه الغاية من سمو الخلق ورجاحة العقل وقوة العارضة وفصاحة اللسان ، مع سعة صدر ولطف معشر ورقة جانب وتواضع ورحمة للعالمين . فوثق به ، واوحى اليه الطمأنينة . وأيقن ان من العزة للأنسان أن يأتمّ به ويسير على نهجه ، وشعر برغبة عظيمة في ان يلمس بيده هذا الرجل العظيم كأنه يريد أن يتبرك به أو كأنه يريد أن يرى أهو من لحم ودم ،أم من روح ونور . فما كاد يضع يده على كتفه حتى أحس كأن نفسه تمتلىء من نوره ، وتسري فيها روح من عظمته ، ويساورها قبس من ارادته العارمة في الهدي والأحياء .

واختلف اليه أياماً عديدة ، وأصغى اليه بكل جارحة فيه ، وهو يتحدث عن الله الذي يسميه رب المستضعفين ، ويتكلم عن الحق الوليد والتاريخ الجديد فيقول لقريش التي تفرض سيادتها الباغية على العرب : الناس كلهم سواء لا فضل لامرىء على آخر

الا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ! ويقول لكسرى وقيصر الجبارين المتألهين : ما كان ، بعض البشر أرباباً لبعض ، ومـا أنتم الا أصنام كاذبة كالأوثان الـتي يريـد الله تحطيمها ! ويدعو العرب عامة والناس كافـة ، الى أحكام قوامهـا العدل والرحمـة والتيسير على الناس ، وبث روح الاخاء والتعاون فيهم ، واقتلاع اسباب الشر من بينهم ، وتهيئتهم لحياة عزيزة سعيدة .

من أجل ذلك كان محمد بن عبدالله يحمل على النخاسين والمرابين والمطففين والمنافقين وكل قاسط زنيم ، ويعـد الرقيق والمرأة والفقير المضطهد والعامل المظلوم بأن يقيم شرعـة الحب والمساواة ويجعل لهم حقاً في أموال المترفين ، ويضرب الأمثال عـلى المصير الذي انتهى اليه كل جبار عنيد ، وعلى المنزلة التي سيرفع الله اليها اولئك الذين يستضعفهم قومهم ويسومونهم سوء العذاب ، فيقول ، وتردد السماء قوله ، ويصغي اليه التاريخ جذلان طروباً ، وتخشع له الأرض التي ما زالت تحلم بالفجر الصادق منذ أجيال طوال :

« ان فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين. ونريد ان نمنّ عـلى الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . »

وقال له النبي وهو يودعـه : « يا أباذر ، ارجـع الى قومك فاخبرهم ، واذا بلغك ظهورنا فاقبل ، واكتم أمرنا عن أهل مكة فاني اخشاهم عليك ! » ولكن اباذر لا يستطيع الكتمان ولا يريد الاختفاء ، وما أقبل من غفار الا ليناضل الى جانب هؤلاء الاقلين

المستضعفين ، فقال : « والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم ! »

وخرج فوقف في المسجد وقريش محتشدة فيه ، ودعا الناس الى المذهب الجديد ، فانقض عليه القوم يضربونه حتى انهكوه. وكادوا يقضون عليه ، لولا أن هرع العباس فأكب عليه ثم أقبل على القوم فقال : « ويلكم .. ألستم تعلمون انه من بني غِفار وأن طريق تجارتكم الى الشام عليهم ؟ » فأقلعوا عنه .

وعاد أبوذر الى محمد ، فأرسله الى غِفار ليدعوها الى الأسلام ، فرجع الى قومه يبلغهم نبأ ظهور نبي جديد سيوحد العرب ويخرجهم من الظلمات الى النور ، مقيماً بينهم شرعة الحق والعدل والمساواة ، منتصفاً لمضطهديهم من الظالمين .

ولبث على ذلك سنين .

الى يثرب

●

اضطهدت قريش محمد بن عبدالله وأصحابه، وعذبتهم، وقاطعتهم، حتى رثى النبي لهم فأشار عليهم بأن يتفرقوا في الأرض، فذهب فريق منهم الى الحبشة لأن فيها مليكاً مسيحياً يعبـــد الله «ولا يُظلم عنده أحد».

واشتد محمد في دعوته، وقريش يشتد ايذاؤها له. وكان يعرض دعوته في مواسم الحج على قبائل العرب الوافدة الى مكة، ثم صار ينهد الى هذه القبائل في منازلها، فكانت ترده رداً غير جميل ومنها من ردته رداً قبيحاً [1].

وبعد اثني عشر عاماً من بدء الدعوة، جاءه النصر من يثرب التي سميت فيما بعد مدينة الرسول، والتي كانت تضم أخواله بني النجار كما تضم قبر أبيه عبدالله: لقد قدم جمـــاعة من اهل يثرب فالتقوا به سراً وبايعوه عند العقبة في جوف الليـل، ولما عادوا الى المدينة صدعوا بما آمنوا وصدقوا بما عاهدوه عليـــه. فنصح الرسول أصحابه ان يرحلوا اليها يلتمسون فيها نصرة دينهم الجديد. فخرجوا اليها أرسالاً حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم. وبقي هو

---

١ ـ حياة محمد، الدكتور حسين هيكل، ص ١٨٤

في مكة مع ابي بكر الصديق وعليّ بن ابي طالب ونفر قليل ممن لم يستطيعوا الهجرة .

واجتمع سادة قريش في دار الندوة . وقد خافوا خروج النبي الى المدينة ، واتفقوا على ان يأخذوا من كل قبيلة فتى جليداً يعطى سيفاً صارماً ، ثم يعمد الفتيان الى محمد فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً ثأراً له ، وتستريح قريش من هذاالثائر الذي يهدد مكانتها وديانتها . وكانت العتمة من الليل ، فاجتمعوا على مقربة من بيت الرسول يتربصونه ...

واتصل النبأ بمحمد ، فخرج من داره في الظلام متقنعاً ، وقد ترك علياً فيها ، بعد أن ارقده على فراشه وسجاه ببرده ، ليوهم القوم بانه ما يزال نائماً هناك . ثم وافى ابا بكر الى حيث ينتظره ، وانطلقا الى غار ثور ليختفيا فيه حتى تسكن قريش عن طلب النبي بعد ما رأت رأيها الخاسر للتخلص منه . وظلا في الغاويومين لا يعرف مقرهما الا عامر بن فهد مولى أبي بكر ، وقريش تجدّ في طلبهما ، حتى أعياها الأمر . ولما سكن الناس عنهما في اليوم الثالث ، وافاهما عامر بن فهد ببعيريهما وبعير له ، ورحلوا جميعاً الى يثرب ، على طريق وعرة غير الطريق التي ألف الناس .

واشتد أمر الرسول في يثرب وقد آمنت به قبيلتا الأوس والخزرج ، أطول الناس ألسنةوأحدهم سيوفاً واكثرهم مؤاساة ...

وغزا غزوة بدر فاشترك فيها بنفسه ، وغنم فيها أحمال القافلة التجارية التي ساهمت قريش كلها فيها والتي كانت الحافز المباشر

للغزوة ، فقسم هذه الغنائم بين المسلمين على سواء ، وجعل للورثة حصة من استشهد منهم ...

ثم كانت غزوة احد التي شنتها مكة بعد ان حشدت لها جميع قواها ، لان انتصار المسلمين بدأ يهدد تجارتها ، موردها الأوحد ، اذ أخذ هؤلاء عليها طريقها الى الشام .. وقد استشهد في هذه الغزوة كثير من اصحاب الرسول ...

ووقعت بعد ذلك واقعة الأحزاب التي امتنع فيها المسلمون بمدينتهم ، بعد ان حفروا حولها خندقاً لا عهد للعرب في الحروب بمثله ، وقد اشترك محمد بنفسه في حفر هذا الخندق ، فأخذ المعول من سلمان الفارسي ونزل الى الخندق ليضرب صخرة بيضاء مَرْوة كسرت حديد أصحابه وشقت عليهم ، ووقف هؤلاء ينظرون اليه.

وقال أحدهم عمرو بن عوف المزني : « فضرب رسول الله الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها[1] حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم ،فكبّر رسول الله تكبير فتح ، وكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله الثانية فصدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله وكبر المسلمون . ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتيها ، حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله وكبر المسلمون . ثم أخذ بيد سلمان فرقى . فقال سلمان : بابي أنت وامي يا رسول الله ، لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط . فالتفت رسول الله الى القوم،

(١) لابتا المدينة : حرتاها الشرقية والغربية .

فقال : هــــل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، بأبينا أنت وامنا ، قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج فرأيناك تكبر فنكبر ، ولا نرى شيئاً غير ذلك . قال رسول الله : أمـــا الاولى فقد أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، والثانية أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم ، والثالثة أضاءت لي منهـــا قصور صنعاء ! » فكان ذلك بشيرهم بالنصر الذي تحقق لهم بعد أمد يسير .

وكان أبو ذر يتنسم تلك الأخبار في قبيلته، ونفسه تتلظى شوقاً الى مشاركة المسلمين في جهادهم الدامي ، حتى لم يبق يطيق هذا الجمود الذي صار اليه في غفار ، فنهد الى يثرب في اوائل السنة السادسة من الهجرة ، ليكون الى جانب الرسول وصحبه ، يشاطرهم آلامهم اذا تألموا ، ويشاركهم في أفراحهم اذا فرحوا، وما أقل ما كانت تهادنهم المتاعب والمكاره فتطيب قلوبهم ويفرحون .

صاحب رسول الله

●

لم يصحب أبو ذر معه الى المدينة شيئاً اذ لم يكن يملك شيئاً ، فأقام في المسجد مع أهل الصّفة الذين لا مأوى لهم ، لا يأبه لرغد العيش وجلال المقـــام ، بل يبدأ يومه بالصلاة ويختمه بالصلاة ، ويعايش المؤمنين الصادقين حفياً بهم شفيقاً عليهم . فاذا ما دعي المؤمنون الى الجهاد لم يتخلف رمحه مرة ، ولم يفتر ساعده في قتال.

وكان الرسول يدعو أهل الصفة اليه ليلًا فيفرقهم على اصحابه، وتتعشى طائفة منهم معه . فكان أبو ذر من هذه الطائفـة المقربة اليه الأثيرة عنده ، يشاركه نهاراً في أعماله وغزواته ، ويجتمع به ليلًا في مجلسه يستمع الى حديثه ويسأله عن كل ما يخطر له ويُشْكِل عليه ، حتى أصبح من اعظم المحدثين واكبر المجاهدين ، وقال فيه علي بن ابي طالب : انه رجلٌ وعى علماً عجز عنـــه الناس ! وقال ايضاً : أما انه قد ملىء له في وعائه حتى امتلأ ، لشدة رغبتـه في طلب العلم ولشدة وعيه اياه ! وكان النبي يبتدئـــه اذا حضر ، ويتفقده ان غاب . ولما خرج لغزو بني المصطلق استخلفه عـلى المدينة فكان ذلك دليلًا على ثقته العظمى به .

واستمر أبو ذر يبيت في المسجد حتى تزوج ، فاتخذ له حينذاك

خيمة متواضعة على رابية صغيرة مجاورة للبادية ، وفي نهاية طريق طويلة ضربت على جانبيها الخيام ...

وما اكثر ما كان يطل من هذه الرابية على الصحراء ، عند مشرق الشمس او مغربها ، وقدسجا السكون لا يرتفع فيه الا صوت مزمار بعيد من مزامير العرب ، أو صوت المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة ، فيرى الرمال تمتد أمامه وتمتد ، ويخيل اليه انه يرى جزيرة العرب وقداتحدت قبائلها الشتيتة الموزعة ، وتحررت من نير الفرس والروم ، والفت دولة مترامية الأطراف لا قبل لأحد باستعباد شعوبها ، بعد ان سلمت مكة المنيعة للرسول ، وبعد ان انضمت اليه القبائل التي كانت تعاديه بالامس لانها رأت انتصاره وتعاظم امره فخشيت ان تتخلف عن الانتظام في موكب هذه القوة الصاعدة .

وكان الرسول قد استعمل رجالاً على الصدقات يوفدهم ليجمعوا له عشر ايراد القبائل ثم يوزع هذا المال على الفقراء ، فخف الفقر الذي كان يبسط جناحيه الاسودين الثقيلين على هذه البقعة من الارض حتى بلغ الامر بالناس انهم كانوا يدفنون اولادهم وهم على قيد الحياة لانهم لا يملكون ما يقيتونهم به وان المرابين كانوا يحملون زوجة المستدين او ابنته على البغاء لايفاء ما على ابيها او زوجها من دين .

وطابت نفس ابي ذر بعض الشيء ... وكثيراً ما كان يتجه بفكره الى المستقبل ، فيرجو ان يقبل بخير أوفى ، حين تنتظم الامور ويزداد الانتاج ويستطاع توفير الرزق لجميع الناس .

وكان طبيعياً ان لا يروق للروم ظهور هـذا النبي الذي يوحد العرب وينقذهم من نير المستعبدين ، فحشد هرقل في الشام جيشاً كبيراً انضمت اليه بعض القبائل العربية التي لم تكن قـد وثقت بعد بدعوة محمد ، كقبائل لخم وجذام وعامـلة وغسان . وعزم هرقل على ان يغزو بهذا الجيش اللجب شمال شبه الجزيرة ليسد الطريق بوجه القبائل العربية المسلمة ويبيد ما يستطيع ابادته منها .

ولكن محمداً سبقه الى فكرته ، اذ دعا العرب لغزو الروم في تبوك ، فتقاعس فريق من اغنياء المسلمين عن الخروج ، بينما أقبلت جموع الفقراء راغبـة في القتال ، وجاء بعض هؤلاء الى النبي يستحملونه ، فقال لهم : لا أجد ما احملكم عليه ! فولوا « واعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » .

وخرجت طائفـة على دواب ضعيفة ، فكانت كلما اجتازت ميلاً أو ميلين تخلف أحد أفرادهـا ، فيقول اصحاب النبي للنبي : « يا رسول الله تخلف فلان ! » فيقول : « دعوه ، ان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه . »

وكان لدى ابي ذر بعير اعجف لا يقوى على قطع تلك المسافة الشاسعة ، فأبطأ في بعض الطريق ، فقيل : « يا رسول الله ، تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره » فردد قوله : « دعوه ، ان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك فقـد أراحكم الله منه » . واستمر الجيش في سيره تاركاً أبا ذر مع غيره ممن توقفت رواحلهم عن السير .

وصعب على ابي ذر ان يكون من المتخلفين ، مع ضعاف

العزائم أو ضعاف الايمان ، عن هذا الجهاد الفاصل في حياة العرب . فترك بعيره ، وأخذ متاعه فحمله على ظهره ، وجدّ بالسير ليلحق باخوانه الغازين ، يعلو الهضاب مرة وينحدر في الوهاد مرة اخرى ، ويضرب في الصحراء ومن حوله آكام من الرمال المحرقة تبنيها يد الرياح في ساعة وتذروها في ساعة . حتى اذا ما أجهده التعب وألحّ عليه الظمأ ، بدت له في آخر الافق ضبابة بيضاء كأنها بحيرة ماء ، فظن انها السراب ، ولكنه مـا زال يغذ السير نحوها حتى بلغها ، فاذا بالسماء قد أمطرت هناك وبقيت من مائها قطرات في تجاويف احدى الصخور ، فذاق أبو ذر الماء وبلل به شفتيه اليابستين ، غير انه لم يشرب منه بل أودعه في قارورة معه ، وواصل سيره الحثيث على الرمال السمراء المتسعرة .

ولما قارب جيش العرب تبوك ، نظر ناظر منهم نحو الصحراء ، فرأى رجلا يسعى على الطريق ، مقبلًا بمفرده من اقصى البادية ، سيراً على قدميه ، فوقف ووقف الناس لانتظاره دهشين ، واذا الرجل ابو ذر ، واذا النبي يخف اليه فيعانقه ، وقد ازداد له حباً وعنه رضى .

ثم يقول النبي لصحبه : « ادركوا أباذر بالمـــاء فهو عطشان » فيدركونه به ، فيشرب شرب الجواد الصادي في عرض الصحراء ، ثم يدنو من الرسول ويقدم اليه قارورة فيها ماء ، فيعجب الرسول ويقول له : « يا أباذر ، معك مـاء وعطشت ! » فيقول : « نعم يا رسول الله ، بأبي انت وامي ، انتهيت الى صخرة وعليها ماءالسماء، فذقته فاذا به عذب بارد ، فقلت لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول

الله » . فيقول محمد بن عبدالله : « يا أباذر رحمك الله ، تعيش وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ! »

وما كاد النبي يصل الى تبوك حتى صالحه أهلها ، وجاءت الوفود من النواحي المجاورة فصالحته على دفع الجزية ، فعاد الى المدينة دون ان يصطدم بجيش الروم .

وكانت تلك الغزوة التي قام بها المسلمون في السنة التاسعة للهجرة آخر غزوات الرسول .

الخليفتان الراشدان

●

كانت آمال ابي ذر بالعصر الجديد الذي ابتدأ تتعاظم باطراد . ولكنه ما لبث ان فجع والمسلمين بالرسول في السنة الحادية عشرة للهجرة ، وخشي أن تؤدي هذه الفاجعة التي تفطّر لها قلبه ، الى تحطيم الآمال الكبار التي عقدها ، وذلك بان يحكم خليفة الرسول هواه وأهله وعشيرته في رقاب الناس فيميل ميزان العدل .

وكان اعظم ما يخشاه أن تضيع حقوق المستضعفين التي كان يرجو أن تتسع وتتوطد كلما توافرت الامكانات التي تساعد على ذلك في المجتمع العربي الذي كان ما يزال في اول تكتله ونموه . وفي الواقع ان الأمر قد اضطرب بعد وفاة الرسول بعض الشيء ، لولا أن ابا بكر قبض زمامه بيد من حديد .

ولقد كان أبو ذر يؤثر علياً على أبي بكر ويرى انه احق منه بالخلافة وبها أجدر . ولما استنجد عليّ بالمسلمين في يوم السقيفة ، جاءه رهط من المهاجرين والأنصار في طليعتهم أبو ذر ، وقالوا له : « انت والله أمير المؤمنين ، وانت والله أحق الناس وأولاهم بالنبي ، هلم بنا نبايعك فوالله لنموتن قدامك ! » فقال : « ان كنتم صادقين فاغدوا عليّ غداً محلقين » فلما أصبح لم يوافه منهم الا أربعة : الزبير

والمقداد وسلمان وأبو ذر . وكذلك كان شأنهم في اليوم التالي واليوم الذي بعده .

وخشي ابو ذر على الاسلام من الشقاق والفتنة ، ورأى ان بعض الناقمين على الصدّيق لم يكن دافعهم الى هذه النقمة حبهم علياً بقدر ما كان دافعهم اليها رغبتهم في تأليب المسلمين بعضهم على بعض ، فبايع أبا بكر كما بايعه لهذا الهدف النبيل علي بن ابي طالب نفسه .

ولم يندم الصحابي على مبايعة ابي بكر ، فقد سار الخليفة الأول سيرة راشدة ، فنهج على سنة الرسول في الحدب على المستضعفين ، والانتصاف للمضطهدين من ظالميهم ، والتخفيف من تفاوت الطبقات ، وافتتح عهده بخطبة رائعة خالدة أبان فيها صفات الحاكم العادل ، فقال : « ايها الناس ! اني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فأعينوني ، وان اسأت فقوّموني . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم قط الا عمهم بالبلاء . اطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ! »

وان ينس ابوذر فلن ينسى يوم خرج مع الجيش الاسلامي الى بلاد قضاعة بقيادة أسامة ، ووقف ابو بكر فيهم فخطبهم خطبة جمعت كل آداب الحرب ، فقال : « ايها الناس ! اوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ،

ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة ، وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ،وتلقون اقواماً قدفحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً . »

وكان الرسول يوزع اموال بيت المال على المسلمين كافة بالتساوي ، ويأخذ خمس الفيء فيقوم بتوزيعه على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابناء السبيل فيزيد بذلك في أنصبتهم . فلما توفي أراد بعض اثرياء المسلمين العودة الى نظام الجاهلية ، فامتنعوا عن تأدية الزكاة ، فجرد أبو بكر أحد عشر جيشاً لقتال هؤلاء المرتدين ، فانتصر عليهم وارغمهم على تأدية الزكاة ، واستمر على تقسيم موارد بيت المال على المسلمين بالتساوي . وكانت أهم هذه الموارد الزكاة التي تؤخذ من المسلمين وتوزع على الفقراء والمساكين ، والجزية التي فرضت على الذميين مقابل فريضة الزكاة على المسلمين ، والفيء الذي كانت تقسم أربعة اخماسه على الجند والخمس الباقي على الفقراء والمساكين ، والغنيمة التي تقسم كالفيء ، والعشور وهي عشر الأموال التي يقبل بها التجار الأجانب الى بلاد الاسلام .

ولما تولى عمر بن الخطاب كان حكمه استمراراً اميناً لحكم سلفيه في كل شأن من الشؤون ، فكان عهده عهد عدل ورغد وفتوح . وقد جنح الفاروق الى تخصيص السابقين في الاسلام والمجاهدين في

سبيله ، فدون الدواوين وحدد لكل عطاءه ، وصار يعطي كلاً من المسلمين نصيباً من المال يتفاوت بحسب عمله .

وحينما تم فتح العراق أشار عبد الرحمن بن عوف على الفاروق بتقسيم أرضها بين المسلمين ، فرفض ذلك وآثر بقـاء الاراضي لاصحابها على ان يؤدوا عليها الخراج ثم يوزعه على المسلمين . فابتهج ابوذر بذلك ايما ابتهاج ، وتضاعف سروره لما غـدا الخليفة الثاني يدفع لكل مولود في الاسلام مبلغاً من المال من بيت مال المسلمين ، وينفق من بيت المال على ري الترع وحفرها ، وعلى المرضى والاسرى والمساجين ، فضلاً عن اعطيات الادباء والعلماء والمدرسين.

ورأى أبوذر في ذلك كله ، خطوة جديدة نحو الامل الذي يطمح اليه في اقرار العدل والمساواة . وضاعف رضاه وعزز أمله ، أن عمر كان يحرص على رضا العامة ، وينظر الى الأمير كفرد من الأفراد يجري عليه حكم العدل كما يجري على غيره ، فحب المساواة بين الناس لا يعدله شيء من اخلاقه ، وما اكثر المآثر التي قام بها في هذا السبيل وشاعت عنه ، وما أروع قصته مع جبلة بن الأيهم أحد ملوك غسان ، فقد كان هذا يزور البيت الحرام في مكة ، فداس عربي من فزارة على ازاره فانحل ، فلطم جبلة الرجل فهشم انفه ، واشتكى الفزاري الى عمر ، فاستدعى جبلة وسأله عن الأمر ، فقال : « انه تعمد حل ازاري ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه السيف » فقال له عمر : « قد اقررت ، فاما ان ترضي الرجل واما ان اقيده منك » فسأل جبلة في دهشة : « وماذا تصنع بي ؟ » قال : « آمر بهشم انفك كما فعلت » فقال : « وكيف ذلك يا امير

المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ! » فقال عمر : « ان الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشيء الا بالتقى والعافية » قال جبلة : « قد ظننت يا امير المؤمنين اني اكون في الاسلام أعز مني في الجاهلية » فقال عمر : « دع عنك هذا ، فانك ان لم ترض الرجل أقدته منك! » فلما رأى جبلة الصدق في عمر ، طلب مهلة ليلة يفكر فيها ، وهرب في الليل وقومه الى القسطنطينية حيث لحق بهرقل .

ولم يمض عامل في زمن عمر موثوقاً به منه في كل ايامه الا القليلين ، لأنه كان يرى ان الابقاء على واحد منهم يوماً واحداً بعد الريبة في امره نقص في مروءته ودينه . وكان يسجل اموالهم اذا ولاهم ، فان زادت اخذ نصفها لبيت المال ...

ومن ذلك ماحدث له مع عمرو بن العاص والي مصر اذ بلغه ، انه قد صار له مال عظيم ، فكتب اليه : « قد ظهر لي من مالك ما لم يكن في رزقك ، ولا كان لك مال قبل ان استعملك ، فأنى لك هذا ؟ فوالله ، لو لم يهمني في ذات الله الا من اختان في مال الله لكثر همي وانتثر أمري ، ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك ولكني قلدتك رجاء غنائك ، فاكتب اليّ من اين لك هذا المال ، وعجل ! » فأجابه عمرو : « ان ارضنا أرض مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلاً عما نحتاج اليه نفقتنا ... » فكتب اليه عمر : « اني خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك اليّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، فقد سُؤْتُ بك ظناً ، وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك ، فاطلعه طلعه ، واخرج اليه مايطالبك به ، واعفه من الغلظة عليك ، فانه قد برح الخفاء . »

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل ، وقال : « هذه تقدمة الشر ، لو جئتني بطعام الضيف لأكلت ، فنحّ عني طعامك» ثم أحضر ماله فأخذ نصفه ورده الى بيت المال !

وولى اباهريرة على البحرين ثم أحصى ثروته وقال له: « استعملتك على البحرين وانت بلا نعلين ، ثم بلغني انك ابتعت أفراساً بالف دينار وستمائة دينار ! » فقال ابو هريرة: « كانت لنا افراس تناتجت وعطايا تلاحقت » فقال له عمر : « قد حسبت لك رزقك ومؤونتك ، وهذا فضل فأدّه » فقال ابو هريرة : «ليس لك !» قال عمر : « بلى والله ، اوجع ظهرك » ثم قام اليه بالدرة فضربه حتى أدماه ، ثم قال له : « ائت بها » قال ابو هريرة : « احتسبتها لله » فقال عمر : « ذلك لو أخذتها من حلال واديتها طائعاً . أجئت من اقصى حجر البحرين تجبي الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك امك اميمة الا لرعية الحمر ! »

أول وهن

●

طابت نفس ابي ذر في عهد الصديق والفاروق ، وسكن الى ما ساد ذلك العهد من حرية وعدل ومساواة . ولكن مقتل عمر بن الخطاب في السنة الثالثة والعشرين للهجرة بيد غلام فارسي ، كان باعثاً له على الألم العميق والتفكير الطويل .

لقد آلمه ان تنتهي حياة ذلك الحاكم العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم ، هذه النهاية المحزنة من جراء فساد بعض عماله ، وهو الذي حرص جهده على الزامهم بالامانة والرحمة والنزاهة .

وانشأ يفكر في تلك الامبراطورية الكبيرة التي اسسها العرب وكان هو من بناتها الأولين ..

لقد خشي ان يؤدي انشغال العرب المسلمين بالفتوحات ، وما تبع هذه الفتوحات من تدفق الاموال الى بلادهم ، وتفرق قبائلهم في انحاء الجزيرة العربية وما جاورها من البلدان التي افتتحوها ، الى انصرافهم او انصراف فئة منهم عن مبادىء الحق والعدل والمساواة التي كانت من اهم بواعث الدعوة الاسلامية .

ثم خشي ان تؤدي تلك الفتوحات الواسعة ، واتخاذ العرب المسلمين عواصم جديدة لهم خارج جزيرة العرب ، وارهاق بعض

الولاة لرعاياهم بالرسوم والضرائب ، الى انتقال روح الكفاح في سبيل تحقيق تلك المبادىء من مكة والمدينة الى غيرها من العواصم الجديدة ، ومن العرب الى غيرهم من الشعوب الخاضعة لهم . لا سيما وان ما ادخله ابو بكر وعمر على نظام الضرائب كان يقضي على تلك الشعوب ، ان تؤدي الخراج والجزية رسوماً عدة على الصنائع والحرف غير محدودة او مبينة على قاعدة معينة ، بل كان مقدارها وزمن تأديتها منوطين بعمال الخليفة ، وجباة المال ، بعكس الخراج والجزية اللذين كانا محدودين فلم يكن للعمال والموظفين مجال واسع للتلاعب بهما .

لقد كان عمر بن الخطاب يقاوم جور عماله ، ويحثهم على انتهاج طريق العدل ، ويدعوهم الى انصاف رعاياهم ، ويتوعدهم بالعقوبات الشديدة ، ولا يتردد في انزال هذه العقوبات بمن يخل في واجباته منهم ، إلا ان هذا كله لم يكن ليمنع تسرب اموال الرعية الى جيوب الموظفين ، وتجمع الثروات الكبيرة في ايدي طبقة من الناس ؛ ولم يكن ليحول دون استياء الطبقة الاخرى التي ينالها عسف العمال والولاة فتوجه نقمتها نحو الدولة ونحو اميرها ، كهذا العامل الفارسي فيروز الذي قدم الى المدينة ليشكو والي الكوفة المغيرة بن شعبة ، ثم قتل الامير في المسجد [1] .

هذا ما بدأ ابو ذر يخشاه ويفكر في علاجه ، غيرة منه على المبادىء التي قام عليها الاسلام ، وحرصاً على الدولة التي اشترك في وضع اسسها الاولى . ولقد تعاظمت خشيته لما خلف عمر عثمان

---

(١) تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام لبندلي جوزي

بن عفان بعد جـــدال طويل وأزمة حادة ، لان عمر رفض ان يستخلف احداً بعده ولكنه عهد عهداً فقال : « عليـــكم بعلي بن ابي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وعبدالله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء ، ولتكن الخلافة للرجـل الذي يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفـــه عبدالله بن عمر في في حالة تساوي الاصوات » فتنافس هؤلاء على الخلافـة ، فاشار احدهم عبد الرحمن بن عوف ، بأن يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلهم . ثم انشأ يسأل المسلمين رأيهم فانقسموا بـين مفضل لعلي ومفضل لعثمان . ثم طلب من عليّ ان يقسم بانه ان تقـــلد الخلافة عامل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، فقال : « ارجو ان افعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي » فدعا عثمان وطلب منه ماطلب من عليّ فقال : « نعم ! » فبايعه وبايعه المسلمون.

ولم يكن ابو ذر لينسى مـــكانة ذي النورين في الاسلام ، أو ينسى حلمه وتقاه وجوده ، ولكنه كان لا ينسى ايضاً ضعفه لعشيرته بني أمية وايثاره اياهم بالخير ، فضلاً عن انه قد طعن في الشيخوخة إذ بلغ يومذاك السبعين من عمره .

وكان من بواعث قلق أبي ذر ايضاً ، ان عثمان لما بويع بالخلافة ، خطب الناس خطبة لا تبين السياسة التي عوّل على انتهاجهـــا في شؤون دولته ، وانما اكتفى بترديد النصائح والتزهيد في الحياة ، بخلاف أبي بكر وعمر اللذين كان اول ما صنعاه لما بويعا انهما اخذا نفسيهما باحقاق الحق وانصاف المظلوم من الظالم .

والواقع ان عثمان لم يكد يستقر في كرسي الخلافة ، حتى سلم ادارة الدولة إلى ابناء عمه بني أمية ، فلم يرض ذلك اكثر الصحابة والمهاجرين وجماعة من آل أبي بكر وعمر ، فاخذوا يقاومون الخليفة وأهله .

إلا ان اقوى مقاومة قامت بوجه عثمان هي مقاومة الطبقات الشعبية التي شقيت في عهده وازداد فقرها نتيجة احتكار فريق من الولاة مرافق الحياة في الامبراطورية العربية ، واتساع التفاوت بين طبقة الارستوقراطيين اصحاب الثروات الضخمة وطبقة المقاتلين وعامة الشعب المتبرمين من فقرهم وحرمانهم .

وقد ساعد عثمان على تكوين تلك الطبقة الارستوقراطية ، إذ أباح لاعلام قريش ان يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات كالعراق ومصر والشام .

قال الطبري : وكان عمر بن الخطاب قد حظر على اعلام قريش من المهاجرين ، الخروج في البلدان إلا بأذن وأجل ، فشكوا ذلك فقال : « ألا اني قد سننت سن البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً ، ثم رباعياً ، ثم سديساً ، ثم بازلا [١] ، ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ؟ الا فان الاسلام قد بزل ، الا وان قريشاً يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، الا فأما وابن الخطاب فلا . اني قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار ! » فلما ولي عثمان

---

[١] الجذع من البعير ما كان في سن الخامسة والثني في السادسة والرباعي في السابعة والسديس في الثامنة والبازل في التاسعة .

الخلافة لم يأخذهم بالذي اخذهم به عمر ،، فانساحوا في البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام فكان مغموماً في الناس ، وصاروا اوزاعاً اليهم ، وأملوهم ، وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب اليهم ، فكان ذلك أول وهن على الاسلام وأول فتنة في العامة [1] .

ويقول المسعودي ان عثمان قد أقطع ابناء عشيرته القرى والأراضي ، وأعطى خيبر لمروان بن الحكم وكان النبي قد تركها فيئاً للمسلمين وظلت كذلك في عهد أبي بكر وعمر ، واعطى مروان ايضاً خمس خراج افريقية وترك لمعاوية خراج الشام فاحتجنه ولم يوزعه على المسلمين. وفي ايامه بلغ مال الزبير بن العوام خمسين الف دينار وخلف الف فرس والف عبد والف أمة وعشرات الدور بالبصرة والكوفة والقاهرة والاسكندرية ، وبلغت غلة طلحة بن عبيد الله التميمي من العراق كل يوم الف دينار (؟) ومن ناحية سراة اكثر من ذلك ، وبلغت ثروات عبد الرحمن الزهري وزيد بن ثابت والمقداد ويعلى بن امية وكثيرين غيرهم مثل ذلك المبلغ [2]

ويروي المسعودي فنوناً شتى من ترف اصحاب عثمان وأرقاماً ضخمة عن ثرواتهم الباذخة ، ثم يقول : « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في ايام عثمان ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب بل كانت جادّةً واضحة وطريقة بيّنة [3] . »

(١) الطبري ، الجزء ٥ ، الصفحة ١٣٤

[٢ و٣] مروج الذهب ، الجزء الأول ، الصفحة ٤٣٤ ـ ٤٣٧ .

نصير المستضعفين

●

أغضب أباذر ان تصير الخلافة الى عثمان بن عفان بدلاً من عليّ ابن ابي طالب ، وأثاره النهج الذي انتهجه بالرعية ، فخرج منذ أول عهده الى الشام ، فهاله ما رأى فيها من انقسام المجتمع الى فريقين متباينين: اغنياء مترفين وفقراء مدقعين، لاستئثار معاوية واصحابه بالفيء والغنائم لانفسهم وحرمان المقاتلة منها وهم الاكثرية الساحقة من العرب ، مدعين ان الفيء لله وليس للمحارب الا اجر قليل يدفع اليه. وأخذ« يحارب تجرد بعض الناس من الثروة على حساب تضخمها في ناحية اخرى [1] » أو يحارب على الاصح تضخم الثروة لدى بعض الناس على حساب تجرد الاخرين منها . فوجدت فيه الطبقات الشعبية الساخطة المحرومة عطاءها ، معبراً عن سخطها ومطالباً بانصافها واعادة حقوقها اليها .

وكان يقف في المسجد فيتلو أحاديث النبي وآيات القرآن الكريم ولا سيما قوله تعالى :« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هـذا ما كنزتم لأنفسكم

١ ــ ابو ذر الغفاري صاحب رسول الله لعبد الحميد جودة السحار

فذوقوا ما كنتم تكنزون » حتى ولع به الفقراء المهضومة حقوقهم ولعاً عظيماً ، وخافه الظالمون والمترفون ، وقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية : « انها الفتنة الكبرى،وان أباذر لمفسد عليك الشام فتدارك أهله ان كان لك فيه حاجة » .

وقد ارسله معاوية الى غزو أرض الروم ، ثم الى غزو جزيرة قبرس ، محاولاً ان يشغله عما هو فيه، ولكن سرعان ما انتصرت جيوش العرب ،وعاد أبوذرالى مكانه من الكفاح. وكان يقول: «اني لأرى حقاً يطفا، وباطلا يحيا ، وصادقاً مكذباً ، واثرة بغير تقي ، وصالحاً مستأثراً عليه !» ولما بنى معاوية قصر الخضراء ، أرسل اليه أبوذر من يقول له : « يا معاوية ، ان كانت هذه من مال الله فهي الخيانة ، وان كانت من مالك فهي الاسراف ! »

وكان معاوية قد سمى مال بيت المسلمين : مال الله . فقال أبوذر : « ألا ان كل شيء لله ، ولكن كأن معاوية يريد ان يحتجن هذا المال ويمحو اسم المسلمين » ودخل عليه فقال له : « يا معاوية ما يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله؟ » قال : « يرحمك الله يا أباذر ، ألسنا عباد الله والمال مال الله ؟ » قال : « فلا تقبله ، ولكن قل مال المسلمين. .ان اموال الفيء من حقوق المسلمين، وليس لك ان تختزن منها شيئاً ، ولكنك خالفت الرسول وأبا بكر وعمر وكنزتها لك ولبني امية .. لقد اغنيت الغني يا معاوية وأفقرت الفقير ..! »

وحاول معاوية ان يسترضيه بشتى السبل : وقد بعث اليه يوماً بثلاثمائة دينار ، فقال أبوذر لرسوله : « ان كانت من عطائي الذي

حرمتموني‌ه أقبلها، وان كانت صلة فلا حاجة لي فيها » وردها اليه .

ودعاه مرة الى مجلسه وطلب منه ان يؤاكله فأبى ، فقال له : « ان الاغنياء يشكونك لانك تثير الفقراء عليهم » فأجاب : اني انهاهم عن جمع الاموال وعدم انفاقهـــا في سبيل الله اي في سبيل الخير والمنفعة العامة ، لقوله تعالى: والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... وأطلب منهم ان يردوا فضل اموالهم على الفقراء ، فان ذلك لحق لهم في اعناق الاغنياء لقوله تعالى : « وفي اموالكم حق معلوم للسائل والمحروم »

فأخرجه معاوية من مجلسه ونهى الناس عن مجالسته فلم ينتهوا .

وفي طبقات ابن سعـــد عن جلام بن جنـــدل الغفاري قال : كنت عاملاً لمعاوية على قنسرين والعواصم في خلافة عثمان ، فجئت اليه يوماً أسأله عن حال عملي ، اذ سمعت صارخاً عـلى باب داره يقول : « اتتكم القطار بحمل النار ، اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له ، اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له » فأزبأر معاوية وتغير لونه وقال : « يا جلام أتعرف الصارخ من هو ؟ » فقلت : « اللهم لا » قال : « من عذيري من جندب بن جنادة يأتينا كل يوم فيصرخ عـلى باب قصرنا بما سمعت ؟ » ثم قال : « أدخلوه علي » فجيء بأبي ذر بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه ، فقال له معاوية : « يا عدو الله وعدو رسوله تأتينا كل يوم فتصنع مـــا تصنع ، أما اني لو كنت قاتل رجل من اصحاب محمد من غير اذن امير المؤمنين عثمان لقتلتك ، ولكني استأذن فيك »

قال جلام : وكنت احب ان ارى ابا ذر لانه رجل من قومي ،

فالتفت اليه فاذا رجل أسمر، ضرب من الرجال، خفيف العارضين ، في ظهره حناء ، فاقبل على معاوية وقال : « مـــا أنا بعدو لله ولا لرسوله ، بل انت وابوك عدوان لله ولرسوله أظهرتما الاسلام وابطنتما الكفر .. الخ »

وكان ابو ذر قد تعرف في دمشق برجل من صنعاء يدعى عبدالله ابن سبأ كان يتنقل في الولايات الاسلامية داعياً الى مـا يدعو اليه ابو ذر من الحق والعدل ، فانبأه ان السخط عام في تلك الولايات على سياسة الجور واحتكار الثروات ، فقوى ذلك من عزيمته وتشدد في دعوته ، وقويت حركة الفقراء والمستضعفين الملتفين حوله حتى أخذوا يسيئون الى الاغنياء [1] فأخذ هؤلاء يتهددونه ، فقال : « ان بني امية تهددني بالفقر والقتل ، ولبطن الأرض احب الي من ظهرها وللفقر أحب الي من الغنى . »

وما زالت دعوته تنتشر بين الناس حتى انقلبت الى ثورة تجيش في النفوس وتوشك ان تنفجر ...

وصعد معاوية المنبر يوماً يخطب الناس قبل صلاة الجمعة ، فقال : « إنما المال مالنا والفيء فيئنا ، فمن شئنا اعطيناه ومن شئنا منعناه » فاذا برجل من عامة الناس يهتف من اقصى المسجد: « بل المال مالنا نحن والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه الى الله باسيافنا ! » ولبث الرجل واقفاً تتطلع اليه العيون معجبة ، وتشرئب الاعناق نحوه متحدية ، فأدرك معاوية ان فكرة ابي ذر قد تجسدت واصبحت

---

[1] تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ، الجزء الاول، ص ٣٤٧

قوة مادية ذات خطر ، وايقن ان اقل سوء يلقاه هذا الرجـل سيؤدي الى ثورة هذه النفوس المتحفزة التي عبر الرجل عن ارادتها وتحدث بلسانها جميعاً ، فلجأ الى دهائه المعروف : ابتسم للرجـل بعطف كبير ، وقال للناس : « ان هذا الرجل احياني احياه الله ، سمعت رسول الله يقول : سيكون بعدي امراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة ! »

وانقلب معاوية الى بيته بعد الصلاة وهو يكاد يتمزق غيظـاً وحقداً ، فكتب الى عثمان : « ان ابا ذر يصبح اذا أصبح ويمسي اذا أمسى وجماعة من الناس كثيرة عنده ، وقد ضيق عليّ وأعضل بي ولا آمن ان يفسدهم عليك، فان كان لك في القوم حاجة فاحمله ، فانه قد صرف قلوب أهل الشام عنك وبغضهم بك ،وهم لا يستفتون غيره ، ولا يقضي بينهم الا هو » .

فاجابه عثمان : « ان الفتنة قد اخرجت خطمهـا وعينيها ، ولم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ الجرح ... احمل ابا ذر عـلى أغلظ مركب واوعره ، ثم ابعث به مع من ينخش به نخشاً عنيفاً حتى يقدم به عليّ ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فانما تمسك ما استمسكت ! »

فتنفس معاوية الصعداء ، ونهض لفوره فوجه أباذر الى المدينة مع خمسة من الصقالبة على قتب بلا وطاء ، فتجمهر نفر من الناس حوله يريدون ان يمنعوه ويردوه ، فخطبهم فقال : « ايهـا الناس اني موصيكم بما ينفعكم ، وتارك الخطب والتشقيق . ايهـا الناس احمدوا الله عز وجل » فقالوا : « الحمد لله » قال : « اشهد ان لا اله

الا الله وان محمداً عبده ورسوله » فأجابوه بمثل ما قال . فقال : « اشهد ان البعث حق ، وان الجنة حق ، وان النار حق ، واقر بما جاء من عند الله ، فاشهدوا عليّ بذلك » قالوا : نحن على ذلك من الشاهدين » قال : « لُيبشَر من مات منكم على هـذه الخصال برحمة الله ورسوله ما لم يكن للمجرمين ظهيراً ، او لاعمال الظلمة مساعداً او لهم معيناً . ايها الناس اجمعوا مع صلاتكم وصومكم غضباً لله اذا عصي في الأرض ، ولا ترضوا ائمتكم بسخط الله ، وان احدثوا ما لا تعرفون فجانبوهم وازروا عليهم وان عذبتم وحرمتم وسيرتم ، حتى يرضى الله ، فان الله أعلى واكبر وأجل ، لاينبغي ان يسخط برضى المخلوقين ... الخ » .

الثـــائر

•

طالت الطريق بأبي ذر ، وألحّ عليه الحرّ والظمأ ، وتسلخت فخذاه من طول قعوده على القتب اليابس ، قتب البعير الهزيل الذي كان يحمله من دمشق الى المدينة ، طاوياً منعطفات الصحراء المقفرة ورمالها المتسعرة ، كأنه مركب يمخر عباب اليم ، وقد انتهكت قواه كما انتهكت قوى راكبه ، لان الحراس الشداد الغلاظ الذين يرافقونه ، لا يسمحون له براحة ولا يعرجون به الى ظل ، بل يحثونه على ان يغذ السير في الليل والنهار ، كي يبلغ الشيخ المتمرّد المدينة قبل ان تتسامع الجماهير التي أحبته بإبعاده ، وقبل ان يتصل هذا النبأ بالقبائل العربية الصابرة على ضيم .

وكان هذا الشيخ الذي امتزجت على جبينه سمات البطل المقدام والقديس الورع ، يرسل انظاره في الصحراء المترامية ، ويرسل خواطره معها في كل وجه ، متسائلا فيم أصابه هذا البلاء ، وهل هو على حق ام باطل ؟ فيطالعه من ثنايا الافق البعيد ، وجه النبي الحبيب يبتسم له مواسياً ويقول له : « سيصيبك يا أبا ذر بلاء في سبيل الحق... يا أبا ذر قل الحق وان كان مراً ، ولا تخش في الحق لومة لائم ! » فينشرح صدره وتثلج نفسه ، ويتذكر قول النبي له

ولاصحابه في وصاياه الاخيرة لهم : « اوصي الله بكم ، واستخلفه عليكم ، واحذركم الله اني لكم منه نذير مبين ، ألاّ تعلوا على الله في عباده وبلاده ، فانه قال لي ولكم : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ! » .

وتسري الى نفس الشيخ نشوة الاطمئنان الذي يشيع من حوله في الأرض الممتدة امتداد الطرف ، وفي السماء الصافية صفاء الله ، ويقول لنفسه وقد استعاد كلمات الله وكلمات رسوله : فما بال هؤلاء العمال والولاة قد علوا في الارض واحتكروا رزق العباد ، وما لهم يدّعون انهم أحق بالخير منا نحن المستضعفين وما قامت الدعوة الاسلامية وما انتصرت الا على اكتاف هؤلاء المستضعفين وبسواعدهم !

ويتساءل ابو ذر وقد ذهب به الخيال كل مذهب ... وما لهؤلاء المتزعمين والمتكبرين يزدهون علينا بعراقة منبتهم واصالة عنصرهم وقد شكاني بلال الحبشي الى النبي لاني عيرته بأمه الأعجمية فوبخني الرسول وقال لي : « يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بافضل من أحمر فيها ولا أسود ، الا ان تفضله بعمل » فأي عمل يعمله هؤلاء حتى يفضلوا غيرهم من الناس ؟ وما بالهم يستأثرون بأرزاق لم يستحقوها بعملهم وقد قال الله في كتابه العزيز « وأنْ ليس للانسان الا ما سعى » وما بالهم يكنزون المال لا يبالون من اين اكتسبوه أمن حل ذلك أم من حرام وقد قال رسول الله : « من لم يبال من اين اكتسب المال لم يبال عز وجل من اين ادخله النار » ولا يعمدون الى انفاقه لخير اومنفعة

عامة وقد هدد الله من يفعل ذلك بعذاب اليم . ثم ما لهؤلاء الرقيق والجواري يتكاثرون والقرآن الحكيم لم يجد مناسبة لعتقهم إلا حض عليها ، ومـــا لهم يظلمون ويضطهدون وقد قال الرسول : اطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ؟ !

وتواردت عـــلى ذهن أبي ذر خواطر وذكريات شتى أثارت شجنه ولكنها قوت عزيمته في الجهاد الذي ندب نفسه للقيـــام به احقاقاً للحق واقراراً للعدل . واذا بمدينة الرسول تبدو في آخر الافق وقد اشعلها شعاع دامٍ من أشعة الشمس الغـــاربة ، ثم اذا بصوت يرتفع بعـــد قليل وكأنه صوت رائد في نبراته رنة الثقة والحزم والتأكيد قائلاً : الله اكبر !

وكان قد وصل الى منازل العرب في ضواحي المدينة ، وبعيره جادّ في السير، وحراسه يجدّون في حثه ولهزه بالعصا ،فكان كلما وصل الى منزل جديد سمع المؤذنين الذين نهضوا لاعـــلان اذان الغروب ، يرددون في ثقة وحزم وتأكيد : الله اكبر .

وكان أبو ذر قد ألف الأذان لكثرة ما سمعه وردده ، ولكن هذه الكلمة التي اسقطت عروش الجبابرة ورجفت لها قلوب الظالمين، قد اتصلت اذ ذاك اتصالاً وثيقاً بسلسلة افكاره ، حتى خيل اليه انها تهدر من السماء في سمعه وقلبه ، شجية النغم حـــلوة النبرات متموجة الصدى ، فتملأه خشوعاً ولكنها تملأه ايضاً ثقة وحزماً وتأكيداً بان الله اكبر من الطغاة والمستبدين ، فيشعر بانه لم يكن أصفى عقلاً وأنضج رأياً وأخصب تفكيراً منه في ذلك الحـــين ، وتنتصب قامته المقوسة على ظهر البعير الاعجف ، كقائد قد اختط

لنفسه خطة وصح منه العزم على المضي في تحقيقها...

وكان قد بلغ جبل سلع في ظاهر المدينة، فرأى جماعة من الناس مجتمعين عند أقدام الجبل، فهتف بهم: «بشروا اهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار... بشروا اهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار...»

ومضى حتى دخل على عثمان في مجلسه، فابتدره هذا بقوله: «لا قرب الله لعمرو عيناً» فقال ابو ذر: «والله ما سماني ابواي عمراً، ولكن لا قرب الله من عصاه وخالف امره وارتكب هواه» فقال عثمان: «انت الذي فعلت وفعلت...» فقال ابو ذر: «نصحتك فاستغششتني ونصحت صاحبك فاستغشني!» قال عثمان: «كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها، وقد انغلت الشام علينا». فقال ابو ذر: «اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام» فقال عثمان: «مالك ولذلك لا أم لك!»

فقال ابو ذر وقد تعاظم مسبة عثمان له: «والله ما وجدت لي ذنباً الا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». قال: «فما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك؟» فأجاب: «ليس أهل الشام هم الذين يشكونني، ولكن هناك فئة قليلة كنزت الاموال واحتكرت الأرزاق ومنعتها عن أصحابها ومستحقيها، ساءها ان اقول للناس: ما كان لكم من حق فخذوه، وما كان باطلاً فذروه! فهم يصرون يا عثمان على أكل الباطل!»

فصرخ عثمان: «أشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذاب، اما ان

اضربه او اقتله ، فانه قد مزق جماعة المسلمين ، أو انفيه من ارض الاسلام ! »

فقال علـــي بن ابي طالب : « اشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون : « فان يك كاذبـاً فعليه كذبه ، وان يك صادقـاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ! » على أني سمعت رسول الله يقول : « مـا أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر ! »

فغضب عثمان وقامت بينه وبين علي مشادة حظر بعدهـــا على الناس ان يقاعدوا أبا ذر أو يكلموه [1] ولكن الناس ازدادوا تألباً حوله ، ونهاه عن الفتيا ولكن فتاويه ظلت تتتابع وقال : « والذي نفسي بيده ، لو وضعتم الصمصامة ههنا (واشار الى عنقه) ثم ظننت اني منفذ كلمة سمعتها من رسول الله قبل أن تحتزوا لأنفذتها ! »

وارسل اليه ان يكف عن تلاوة الآيات والأحاديث التي تؤلب المستضعفين على المترفين ، فقال : « أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى ، وعيب من ترك امر الله تعالى ، فوالله لأن ارضي الله بسخط عثمان أحب الي من ان اسخط الله برضى عثمان ! »

وحاول عثمان ان يستميله فأرسل اليه موليين له ومعهما مائتا دينار قائلًا لهما : « انطلقا الى ابي ذر فقولا له ان عثمان يقرئك السلام ويقول لك : « هذه مائتا دينار فاستعن بهـــا على ما نابك » فقال أبو ذر : « هل اعطى أحداً من المسلمين مثل مـا اعطاني ؟ »

---

(١) اعيان الشيعة للسيد محسن الامين ، المجلد ١٧ ، الصفحة ٤٩٥

قالا : « لا ! » قال : « فأنما انا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم » قالا : « انه يقول لك : هذا من صلب مالي ! ووالله الذي لا إله الا هو ما خالطها حرام ، ولا بعث بها اليك الا من حلال » فقال: « لا حاجة لي فيها ، وقد اصبحت يومي هذا وانا من اغنى الناس » فقالا له : « عافاك الله وأصلحك ، مـــا نرى في بيتك قليلاً ولا كثيراً مما تستمتع به ! » فقال : « بلى ، تحت هذا الأكاف الذي ترون رغيفا شعير قد أتى عليهما ايام فمـا أصنع بهذه الدنانير ؟ » وردها الى عثمان .

فأعاد عثمان الكرة غير مرة ، وارسل اليه يوماً مائة دينار مع عبد له ، وقال له : « ان قبلها فأنت حر » فأتاه بها فلم يقبلها ، فقال : « اقبلها يرحمك الله فان فيها عتقي ! » فقال: « ان كان فيها عتقك فان فيها رقي » وأبى ان يقبلها .

ودعاه الخليفة اليه مرة محاولاً أخـذه باللين ، فأقبل وكان كعب الأحبار وبعض الوجوه عنده ، فقال له : « يا أبا ذر ألا تكف عما أنت فيه ؟ » فقال : « حتى ينتصف الفقراء من الاغنيـاء ! » فالتفت عثمان الى من حوله وقال : « أرأيتم من زكى ماله ، هـل فيه حق لغيره ؟ »

فقال كعب الاحبار : « لا يا امير المؤمنين لو اتخـــذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ماوجب عليه بعد ذلك شيء ! » فدفـــع أبو ذر عصاه في صدر كعب [1] وقال : « كذبت ! » ثم تـــلا :

---

١ اعيان الشيعة للسيد محسن الامين ، المجلد ١٧ الصفحة ٥٢٠

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرون في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا واولئك هم المفلحون » .

ثم قال : « ألا ترى ان الله تعالى قد فرق بين اداء الزكاة واعطاء المال ذوي القربى واليتامى والمساكين والأرقاء وقدم هذا على ذاك ؟ » ثم الا ترى انه تعالى قد نهى عن الكنز وامر بانفاق الاموال في سبيل الخير » فأصر كعب على قوله : « من أدى فريضة الزكاة فقد قضى ما عليه ! » فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب مرة ثانية وقال : « الئن اغتصب الرجل اموال الناس وسلبهم حقوقهم بالباطل ، ثم أدى الزكاة على هذه الاموال المغصوبة والحقوق المسلوبة تسميه مسلماً يؤدي فريضة ! » ثم غادر المجلس .

ودخل مرة أخرى مجلس امير المؤمنين وبين يديه مائة الف درهم قد حملت اليه من بعض النواحي ، واصحابه حوله ينظرون اليه ويطمعون ان يقسمها فيهم ، فقال له : « ما هذا المال ؟ » فقال عثمان : « مائة الف درهم حملت اليّ من بعض النواحي اريد ان اضم اليها مثلها وأرى فيها رأيي » .

ثم التفت عثمان الى من حوله فقال : « أيجوز للامام ان يأخذ من المال شيئاً قرضاً فاذا أيسر قضى ؟ » فقال ابو ذر

« انه لا يجوز ! » وقال كعب « انه لجائز » فصرخ به ذربوا ودفع عصاه في صدره [1] .

ثم التفت الى عثمان فقال له : « يا عثمان ايما اكثر مائة الف درهم ام أربعة دنانير ؟ » فقال : « بل مائة الف درهم » فقال : « أما تذكر اني انا وانت دخلنا على رسول الله عشاء فرأيناه كئيباً حزيناً ، فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام ببشره المعهود « فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكاً مستبشراً فقلنا له : « بآبائنا وامهاتنا ، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزيناً ، وعدنا اليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً ! » فقال : « نعم ، كان قد بقي عندي من فيء المسلمين اربعة دنانير لم اكن قسمتها ، وخفت أن يدركني الموت وهي عندي ،وقد قسمتها اليوم فاستروحت » فأين ما تقول واصحابك بما قاله رسول الله ! »

فقال عثمان وقد احتدم غضبه :

« يا أبا ذر انك شيخ خرفت وذهب عقلك ، ولولا صحبتك لرسول الله لقتلتك »

فخرج ابو ذر غاضباً لا يلوي على شيء .

---

(١) مروج الذهب ، الجزء الاول ، الصفحة ٤٣٨ .

الطريـــد

•

ظل أبو ذر شهوراً عدة منطوياً على نفسه لا يكاد يغشى او يجالس احداً ، يقضي عامة يومه في المجلس مصلياً مفكراً ملتزماً الصمت لا يتحدث الا اذا استفتي أو سئل عن أمر أشكل على صاحبه ..

وفي ذات يوم جيء الى مجلس امير المؤمنين بتركة عبدالرحمن بن عوف من المال ، فملأت مكاناً كبيراً منه ، فقال عثمان : « اني لأرجو لعبد الرحمن خيراً ، لانـه كان يتصدق ويقري الضيف وترك ما ترون » فقال كعب الأحبار : « صدقت يا امير المؤمنين ، قد كسب طيباً وانفق طيباً وترك طيباً .. لقـد أعطاه الله خير الدنيا والآخرة ! » .

فبلغ ذلك أبا ذر، فخرج مغضباً يريد كعباً ، وقد بـــدا عليه كأنه يعاني المــاً جسمانياً وثورة نفسية عنيفة في آن واحـــد ...

وبينا هو في بعض الطريق رأى عظم بعير فأخذه بيده كالعصا ، ثم انطلق الى غرضه والشرر يتطاير من عينيـــه ، فقيل لكعب ان ابا ذر يطلبك ، فولى هارباً حـتى دخل على

عثمان يستغيث به ، وأقبل أبو ذر في طلبه حتى انتهى الى دار عثمان ، فلما دخل قـــام كعب فجلس خلف عثمان محتمياً به ...

فصرخ ابو ذر : « ويلك يا كعب ... تقول لرجل مات وترك ذلك المال ان الله قد أعطاه خير الدنيـا والآخرة ، وتقطع على الله بذلك ! ألا فاخبرني من اين اتى بهذا المال ؟ هل أنزله الله عليه من السماء أم أخـــذه من حقوق الناس وأتعابهم ؟ ألا والله ليودن صاحب هذا المال يوم القيامـــة لو كانت عقارب تلسع السويداء من قلبه ! »

ثم اخذ يروي بعض ما سمعه من النبي في معرفة الكافرين، وقال: لقد خرج رسول الله مرة وانا معه فقال : « يا أبا ذر ، الأكثرون هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وخلفه وقدامه وقليل ما هم » ثم قال لي : « يا أبا ذر ، ما سرني ان لي مثل أحد انفقه في سبيل الله اموت ثم اموت ولا أترك منه قيراطين ! » فرسول الله يقول هـذا وانت تقول : « لابأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ! » ورسول الله يقول : « أي مال ذهب أو فضة اوكي عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله » وأنت تقول : « لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف » فوالله لقد كذبت وكذب من قال ! »

ثم انقض عليه وضرب رأسه بعصاه فشجه [١] .

---

(١) اعيان الشيعة ، المجلد ١٧ ، الصفحة ٤٤٧ ومروج الذهب ، المجلد ٨ الصفحة ٤٣٨ .

فكبر ذلك على عثمان وضاق به صدره ، حتى كاد يتمزق غيظاً . وتمنى لو ان هذا الشيخ المتمرد غير أبي ذر خامس الاسلام ورفيق رسول الله واحد الحوراييين الذين مضوا على منهاجه ، اذن لعرف كيف يعقد لسانه . ثم التفت صوبه حانقاً مغلوباً على أمره وقال له : « ما اكثر أذاك لي ، دار عني وجهك ، والله لا جمعتني واياك دار فاخرج عنا ... »

فقال ابو ذر : « ويحك يا عثمان ، أما رأيت رسول الله ورأيت ابا بكر وعمر ، هل هديك كهديهم ؟ أما انك لتبطش بي بطش جبار ! »

فقال عثمان مصراً على تنفيذ عزمه : « اخرج عنا من بلادنا وجوارنا ... »

فقال أبو ذر وقد رأى الغضب في وجه الخليفة : « ما ابغض الي جوارك ، فالى اين أخرج ؟ »

فقال الخليفة : « حيث شئت .. » قال ابو ذر : « فاسير الى مكة ؟ » قال : « لا والله » قال : « أخرج الى الشام أرض الجهاد ؟ » قال : « انما جلبتك من الشام لما أفسدتها أفأردك اليها ؟ » قال : « افأخرج الى العراق ؟ » قال : « « لا ، أنك ان ان تخرج اليها تقدم على قوم اولي شقة وطعن على الائمة والولاة ! » قال : « افأخرج الى مصر ؟ قال : « لا والله فاختر غير هذه البلدان ! »

فقال ابو ذر وقد ضاق صدره : « والله ، ما اختار غير ما ذكرت ، ولو تركتني في دار هجرتي ما اردت غيرها ،

فسيروني حيث شئت .»

قال عثمان : « فاني مسيرك الى البادية ؟ » قـــال ابو ذر : أصير بعد الهجرة اعرابيـــاً ! » قال : « نعم ! » قال أبو ذر : « فأخرج الى بادية نجد ! » قال عثمان : « بل الى الشرق الابعد أقصى فأقصى .. امض على وجهك هذا منذ اليوم ولا تعدونّ الرَبَذَة ! »

ودعا عثمان مروان بن الحكم وجماعة من رجاله فقال لهم : « اخرجوه من بين يدي حتى تركبوه قتب ناقة بغير وطاء ، ثم انجوا به ، وتعتعوه ، حتى توصلوه الى الربذة فتنزلوه من غير أنيس حتى يقضي الله فيه ما هو قاض ! »

فأخرجوه متعتعاً ملهوزاً بالعصا [١] .

وكان عثمان قـد نهى الناس ان يصحبوه في مسيره أو يشيعوه ، وشدد عليهم في ذلك ، فتجافوه خوفاً من امـــير المؤمنـــين [٢] .

فبلغ ذلك عليّ بن ابي طالب ، فبكى حتى ابتلت لحيته ، وقال : « أهكذا يصنع بصاحب رسول الله ، انا لله وانا اليه راجعون » ثم نهض ومعه اخوه عقيل وولداه الحسن والحسين وجماعة من اصحابه حتى لحقوا أبا ذر فشيعوه .

وجعل الحسن يكلم أبا ذر ، فقال مروان بن الحكـــم : « ايهاً يا حسن ، ألا تعلم ان امير المؤمنين قد نهى عن كلام

---

١ اعيان الشيعة ، المجلد ١٧ ، الصفحة ٥٠٩ .

٢ سيرة ابن هشام ، الجزء ٢ ، الصفحة ٩٧١ .

هذا الرجل ، فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك . »

فساور عليّ بن ابي طالب عليه السلام غضب شديد وأقبل على مروان فضرب بالسوط بين اذني راحلته [1] وقال :

« تنح لحاك الله الى النار ! »

فرجع مروان بن الحكم خزيان مغضبا الى عثمان يخبره الخبر . وقال علي : « يا أبا ذر انك غضبت لله ، وان القوم قد خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فامتحنوك بالقلى ونفوك الى الفلا ، والله لو كانت السماوات والارض على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل له منها مخرجاً ، يا أبا ذر لا يؤنسنك الا الحق ولا يوحشنك الا الباطل » .

وقال علي لأبنائه : « ودعوا عمكم » وقال لعقيل : « ودع اخاك » فتكلموا جميعاً آسفين مشجعين .. فبكى أبو ذر وكان شيخاً كبيراً ، وقال : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة ، اذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله ، مالي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ... اني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام ، وكره ان اجاور اخاه وابن خاله بالمصرين فافسد الناس عليهما ، فسيرني الى حيث لا ناصر لي ولا دافع الا الله . »

ومضى الشيخ الى منفاه ، ورجع القوم الى المدينة .

وقال ابو الدرداء لما سمع بالنبأ : « إنا لله وانا اليه راجعون » والله لو ان اباذر قطع مني عضواً أو يداً ما هجته ، لما سمعت من قول رسول الله فيه »

---

١ اعيان الشيعة ، م ١٧ : ص ٥١١ .

وفي « الدرجات الرفيعة » ان عبدالله بن مسعود لما بلغه نفي ابي ذر الى الربذة ، وهو اذ ذاك في الكوفة ، قال في خطبة له بمحفل من اهل الكوفة معرّضاً بمن نفاه : « فهل سمعتم بقول الله تعالى : « ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم » فكتب الوليد بذلك الى عثمان ، فاشخصه من الكوفة ، فلما دخل مسجد النبي امر عثمان غلاماً له اسود فدفع ابن مسعود واخرجه من المسجد ، ورمى به الى الارض ، وجعل منزله سجنه ، وحبس عنه عطاءه الى ان مات .

في المنفى

●

سار ابو ذر الغفاري الى الربذة وليس معه الا زوجته وولده وابنته ، وسكن معهم في بلقعها الخاوي ، لا يأسى على ما فاته ولا يحزن على ما اصابه ، وقد عرف ان قول الحق لم يترك له صاحباً ، ولكن بحسبه ان الله ناصر الحق ، وهو لا يخشى مع الله وحشة ولا يبغي إلاه صاحباً ..

ومرّت بالشيخ المسن ، في وحدته وبؤسه ، ايام عصيبة ثقال وليال طويلة حوالك ، لم تفتر فيها همته ولا وهنت عزيمته ، فان عري الرمال كان احب الى قلبه من التنعم بالقصور التي بنيت من كد المتعبين وحرمان المدقعين ..

ولطالما كان يساهر مصابيح السماء ، ويرسل بانظاره في الافق البعيد الرحب ، وقد سجا الليل وران السكون ، فتمتلىء نفسه بعاطفة اللانهاية ومعنى الخلود ، ويطمئن الى ان اراءه ستعيش بعده وتظل تبعث باستمرار حتى يتاح لها ان تنتصر وان تأخر انتصارها الف عام ..

وظل ذلك الشيخ صابراً على مرّ البلوى ، حتى رأى الموت يبيد غنيماته القليلات ، والجوع يسطو على ابنته فيغتالها من

بين يديه ثم يهم بابنه يريد ان يلحقه بها .. فانطلق حينئذ الى المدينة ، ودخل على عثمان في مجلسه وهو شبه عار ، وقد جلل الشيب مفرقه وأحنت السنون ظهره ، فتطلعت عيون الحاضرين في رعب واشفاق واكبار ، الى وجهه الذي استطال ، وشققته الغضون أخاديد ، ونم جلده عن عظامه كأنها لم تكتس يوماً بلحم ...

وقف ذلك الشيخ الذي برته الايام والآلام بباب عثمان يحدق به صامتاً بعينين غائرتين نافذتين يتألق فيهما بريق غير معهود ، ثم قال له : « يا عثمان .. انك قد اخرجتني من ارضي الى ارض ليس بها زرع ولا ضرع الا شويهات ، وليس لي خادم الا محررة ، ولا ظل يظلني الا ظل شجرة ، فاعطني خادماً وغنيمات اعيش بها » فحول امير المؤمنين وجهه عنه كأنه لا يسمع كلامه ...

فتحول ابو ذر الى الجانب الآخر فقال مثل ذلك ، فقال له حبيب بن مسلمة : « لك عندي يا ابا ذر الف درهم وخادم وخمسمائة شاة » فقال ابو ذر : « اعط خادمك وألفك وشويهاتك من هو احوج الى ذلك مني ، فانما اسأل حقي في كتاب الله » .

ودخل علي بن ابي طالب المجلس ، فابتدره عثمان بقوله : « ألا تغني عنا سفيهك هذا ? » قال : « أي سفيه ? » قال : « ابو ذر ! » فقال علي : « انه ليس بسفيه ، لقد سمعت النبي والله يشبه زهده وتواضعه وحياءه بما كان لعيسى بن مريم من

زهد وتواضع وحياء ! » وانكفأ ابو ذر لا يلوي على شيء ، ولا يستجيب لمن يناديه من اهل المجلس ، حتى عـــاد الى مقره في الربذة القفراء ...

ودخل على زوجته الرؤوم في الخيمة الممزقـة المشدودة الى ساق نخـلة تقوم بمفردها هنـاك ، فاذا هي تبـكي الى جانب ابنها المسجى بغطاء رقيق ، فادرك انه قـد مات ، فاغمض عينيه لهـول المشهد ، ومسح دموعـه في صمت ، ثم تجالد وقام اليه فكفنه ودفنه وقد استبد به ألم طاحن أصم .

ووقف على القبر فمسحه بيده برفق وقال : « رحمك الله يا ولدي ، لقد كنت كريم الخلق باراً بالوالدين ، وما عليّ في موتك من غضاضة ، ومالي الى غير الله من حاجة ، وقد شغلني الاهتمام الك عن الاغـــتمام بك ، ولولا هول المطـلع لأحببت ان اكون مكانك ، فليت شعري ماذا قلت ومـاذا قيل لك ؟ » ثم قال : « اللهم انك فرضت الك عليـه حقوقاً وفرضت لي عليه حقوقاً ، فاني قد وهبت له ما فرضت عليه من حقـوقي ، فهب له ما فرضت عليـه من حقوقك ، فانك اولى بالحق واكرم مني » .

وبقي ورفيقته التي اخلصت له ، اياماً لا يأكلان شيئاً .. ثم قال لها : « قومي بنا الى الكثيب نطلب العبب [1] » فصارا الى الكثيب والريح تئن وتصفر ، فلم يجـــدا شيئاً ، فاصاب أبا ذر ذهول وطفـق يمسح العرق الذي ينضح ، رغم البرد

١ ــ نبات ذو حب ينبت في القفر .

الشديد ، على جبينه الاسمر المتغضن وعارضيه الخفيفين الابيضين وعاد الى الخيمة التي تعبث بها الرياح ، ثقيل الخطى ، منكس الرأس ، مظلم الوجه ، كنسر اهيض جناحاه ...

ونظرت اليه زوجه فاذا بعينيه قد انقلبتا ، فبكت تلك المرأة الصبور التي تحملت معـــه نكد الدنيا ومرّ العيش ، فقال : « ما يبكيك ؟ » فقالت . « مالي لا ابكي وانت تموت في فلاة من الارض ، وليس عندي ثوب يسعنا كفناً لي ولا لك ، ولا بد لي من القيام بجهازك ! »

فاشفق الشيخ عليها وقال لها وقلبه يقطر أسى « فابصري الطريق لعل هنالك احداً من المؤمنين » فقالت : « أنى وقـد ذهب الحاجّ وتقطعت الطريق ! »

فقال وقد ذكر كلمة قالها له الرسول : « اذهبي فتبصري ، فان رأيت احداً فقد اراحك الله من القلق والعذاب ، وان لم تري احداً فمدي الكساء على وجهي ، وضعيني على قارعـة الطريق ، وقولي لأول ركب يمر بك : « هذا ابو ذر صاحب رسول الله قد قضى نحبه ولقي ربه ، فأعينوني عليه وأجنّوه ! »

فأنشأت تهرع الى الكثيب فتنظر ، ثم ترجع اليه فتمرضه . فبينا هي ترسل نظرها الحزين في الافق الغائم ، اذا برجال على رحالهم كأنهم الرخم تخب بهم رواحلهم ، فألاحت ثوبها ، فأقبلوا حتى دنوا منهـا ، فقالوا : « يا أمة الله مالك ؟ » قالت : « امرؤ من المسلمين تكفنونه وتؤجرون فيـه » قالوا : « ومن هو ؟ » قالت : « ابو ذر الغفاري . » قالوا متساءلين وقد انكروا

لأول وهلة ان يموت ذلـك الصحابي الجليل وحيداً في هذه الفلاة : « صاحب رسول الله ؟ » قالت : « نعم ! » فقالوا : « بآبائنا وامهاتنا هو ، لقد اكرمنا الله بذلك .»

ثم وضعوا سياطهم في نحورها ، واسرعوا اليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم : « ابشروا فاني سمعت رسول الله يقول لنفر أنا منهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض يشهده عصابة من المؤمنين ! وليس من اولئك النفر أحد الا وقد هلك في قرية وجماعة . »

وتفرس الشيخ المحتضر في وجـــه القوم وقـال لهم : « والله ما كذبت ولا كذّبت ، ولو كان عنـــدي ثوب يسعني كفنـاً لي ولامرأتي لم اكفن الا في ثوب هو لي او لها ، واني انشدكم الله ان لا يكفنني رجل منكم كان اميراً أو عريفاً أو بريداً او نقيباً ! »

فنظر القوم بعضهم الى بعض حائرين ، اذ لم يكن فيهم احد الا وقد قارف من ذلك شيئاً ، الا فتى من الأنصار قال له : « انا اكفنك يا عم في ردائي هذا الذي اشتريته بمال كسبته بعملي ، وفي ثوبين في عيبتي من غزل امي حاكتهما لي كي احرم فيهما » فقال : « انت الذي تكفنني ، فثوبك هو الثوب الطاهر الحلال ! »

وكأن أباذر قد اطمأن الى هذا القول وسكن اليه ، فاغمض عينيه ولفظ أنفاسه الطاهرة في هدوء وتسليم ، بينما كانت السحب تتراكض في السماء كأشباح هائمة ، والرياح

تلعب بالرمال السوافي ، كأن بلقع الربذة الحاوي قد تحول الى بحر عاصف .

فغسله القوم وكفنوه ، ثم صلوا عليه ودفنوه ، ووقف الفتى الأنصاري على قبره فقال : « اللهم هذا ابوذر صاحب رسول الله ، عبدك في العابدين ، وجاهد فيك المشركين ، لم يغيّر ولم يبدّل ، لكنه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفي ونفي ، وحرم واحتقر ، ثم مات وحيداً غريباً ... اللهم فاقصم من حرمه ونفاه من مهاجره وحرم رسول الله ! »

فرفعوا أيديهم جميعاً وتمتموا بحرارة وخشوع : « آمين ! » .

الغارة الشعواء

●

قضى أبو ذر الغفاري في السنة الثانيـة والثلاثين للهجرة وعيناه تتطلعان الى مشرق الشمس ، فـيرى تباشير فجر جديد لا يدري أينبثق مبكراً أم متأخراً ، ولكنه يثق بانه سينبثق عـلى كل حال ، ويلف بنوره المشرق والمغرب ، ويوطد شرعة الحق والعدل والمساواة ...

وما كان موت ذلك الصحابي الجليل ليزيل استياء الناس في الأقاليم من سياسة عثمان وولاته وأصحابه ، لان ابا ذر لم يكن الا احدى الشخصيات التي تجسد فيها ذلك الاستياء وان كان المعها واشدها جرأة وابعـدها نفوذاً لعراقته في الاسلام وصحبته للرسول ، فواصل الثائرون الاجتماعات في منازلهم ، ولعن عثمان جهاراً ، وخاض الناس فيما ارتكب وعشيرته من عظائم الامور [1] .

وكان ابن سبأ ما يزال ينفى من بلد الى آخر في الولايات

---

١ الاصابة في تمييز الصحابة ، الجزء الرابـع ، الصفحة ٢٢٤ والاسـلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ، الجزء الاول ، الصفحة : ٣٥٤ ـ ٣٥٥

العربية ، ثم استقر في مصر وبدأ ينشر فيها دعوته ، ويتصل بالثائرين في البصرة والكوفة ويتبادل معهم الكتب والرسائل ويرسل اليهم الدعاة ، حتى اصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان الى ندب اربعة من رجاله لتهدئتها والتحقق من امرها .

ذهب محمد بن مسلمة الى الكوفة ليحقق فيها ، ومضى اسامة بن زيد الى البصرة ، وعبد الله بن عمر الى الشام ، وعمار بن ياسر الى مصر ، فعاد ثلاثة منهم يحدثون الخليفة عن تألب الولايات الاسلامية عليه وعلى ولاته ، وتخلف أحدهم ياسر ، وهو احد اصحاب الرسول ومن السابقين في الاسلام ، لالتحاقه بالثائرين في مصر فكان تخلفه خير جواب يدل عثمان على مبلغ السخط الذي اثارته سياسته في البلاد .

قال الطبري فلما دخلت سنة خمس وثلاثين تكاتب اعداء عثمان وبني امية في البلاد ، وحرض بعضهم بعضاً على خلع عثمان عن الخلافة وعزل عماله عن الأمصار ..

واتصلت تلك الانباء المثيرة المقلقة بعثمان في المدينة ، فكتب الى اهل الأمصار : « ... انه رفع الي ان اقواماً منكم يشتمهم عمالي ويضربونهم ، فمن أصابه شيء من ذلك فليواف الموسم بمكة فيأخذ بحقه مني او من عمالي .. » ثم استقدم عماله واستشارهم ، فمنهم من اشار عليه باللين ، ومنهم من اشار بالعنف ، ونصحه معاوية بأن يخرج معه الى الشام قبل ان يهجم عليه ما لا قبل له به ، فرفض عثمان

ذلك لكبر سنه وحرصه على جوار الرسول !

ولكن عبثاً كان عثمان يفكر في تسوية الامور بعد ان خرجت من يديه ، اذ لم يكد يقبل موسم الحج من تلك السنة حتى خرج اناس من مصر ، وخرج اناس من الكوفة ، وخرج اناس من البصرة ، وتقدموا فنزلوا في ظاهر المدينة بضعة الوف يزعمون انهم يريدون الحج .

ومضت ايام كان الثائرون يعدون فيها العدة لامرهم ويتشاورون فيه ... ثم لم يشعر اهل المدينة الا وقد هاجم اولئك الثائرون البلدة ، وأحاطوا بعثمان ، ونادى مناديهم :

« يا أهل المدينة من كف يده عن الحرب فهو آمن »

فقعد اهل المدينة عن نصرة عثمان لنقمتهم عليه .. ولما لم يجد الثائرون اية مقاومة تحول بينهم وبين هدفهم ، حاصروا عثمان في منزله ، ولكنهم لم يمنعوا الناس من لقائه ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين وسألوهم ما شأنهم ، فقالوا :

« لا حاجة لنا في هذا الرجل ، فليعتزلنا كي نولي غيره ! »

ولم يزيدوا على ذلك .

فخشي عثمان ان يصيبه القوم بسوء وارسل الى عماله يستنجد بهم ، وخرج يوم الجمعة فصلى بالناس ، ثم خطبهم محاولا تأليبهم على الثائرين ، فهب هؤلاء وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه [١].

---

١ الطبري في أخبار السنة الخامسة والثلاثين وقد رجعنا اليه في كتابة هذا الفصل .

وتفرق اهل المدينة عن الخليفة ولزموا بيوتهم لا يغادرها أحد منهم الا بسيفه .

وطال حصار الثائرين لأمير المؤمنين اربعين يوماً وقد ابوا الانصراف الا اذا اجيبوا الى طلبهم ، واعتزموا قتله ان لم ينزع عما يكرهون .

وقد كلمه الامام عليّ بن ابي طالب في ذلك ، مع جماعة من وجوه المهاجرين والانصار ، ونصحوه ان يقلع عن سيرته ويكف مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد عما هم فيه من الطغيان ، فوعدهم بذلك وخرج الى الثائرين فخطبهم معلناً توبته قائلاً لهم : « انا اول من اتعظ واستغفر الله عما فعلت وأتوب اليه ، فمثلي نزع وتاب ، فاذا نزلت فليأتني اشرافكم فليروني رأيهم ، وليذكر كل واحد ظلامته لاكشفها وحاجته لأقضيها ، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنّ بسنة العبيد ، ولأذلنّ ذل العبيد ، وما عن الله مذهب الا اليه ، والله لاعطينكم الرضى ، ولأنحين مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم ! »

ولما عاد الخليفة الى بيته وجد مروان وسعداً ونفراً من بني امية ينتظرونه فيه وقد بلغتهم خطبته واشارتهم عليه ، فما كاد يجلس حتى قال مروان بن الحكم وهو اعظمهم نفوذاً واشدهم غضباً : « يا أمير المؤمنين أأتكلم ام اسكت ؟ » فقالت نائلة امرأة عثمان : « لا بل تسكت ، فانتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله ، انه قد قال مقالة لاينبغي له ان ينزع عنها »

فشتمتها مروان وشتمته ، ثم انشأ يعاتب عثمان في خطبته ويقول له : « انك قد جرأت الناس عليك » فيجيبه بانه لم يكن يسعه ان يصنع غير ذلك وقد أحدق به الثائرون يريدون قتله .

وتفرقت جموع الثائرين بعد ان رفعت الى الخليفة مطالبها وشكت اليه مظالمها ، وعاد كل قوم منهم الى بلده وقد وثق بوعد عثمان في محاسبة عماله والاقتصاص منهم واستبدالهم بولاة يحكمون بينهم بالعدل .

وبينا قوم مصر في طريقهم الى وطنهم ، اذا بغلام عثمان يمر بهم على بعير من ابل الصدقة ، وهو يحث مطيته كأنه يريد ان يسبقهم ، فلما سألوه عن شأنه تغير لونه وتلعثم لسانه ، فرابهم امره وفتشوا متاعه ، واذا به يحمل صحيفة في انبوبة من الرصاص فيها أمر من عثمان الى عبدالله بن سعد عامله بمصر ، بان يجلد زعماء الثائرين ويحلق رؤوسهم ولحاهم ويسجن بعضاً منهم ويصلب آخرين ! »

فعاد القوم من فورهم الى المدينة ، ودخلوا على عثمان فسألوه عن الصحيفة ، فاقسم بالله انه ما كتبها ولا علم أوأمر بها . وقال محمد بن مسلمة : « لقد صدق ، فهذا من عمل مروان ! » فقال عثمان : « لا أدري ! »

فقال الثائرون وقد اشتد عجبهم وتفاقم غضبهم : « أفيجترىء عليك مروان ، ويبعث غلامك على جمل من ابل الصدقة ، وينقش على خاتمك ، ويبعث الى عاملك بهذه الامور العظيمة ..

وانت لا تدري ! فقال امير المؤمنين مسلماً : « قال : « نعم ! »

فقال القوم : « انك اما صادق او كاذب ، فان كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا وعقوبتنا بغير حق ، وان كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ، ولا ينبغي لنا ان نترك هذا الأمر بيد من تُقطع الامور دونه لضعفه وغفلته . . . فاخلع نفسك منه ! »

فقال عثمان : لا انزع قميصاً ألبسنيه الله ولكني اتوب وأنزع » فقالوا : « لو هذا كان اول ذنب تبت منه لقبلنا ، ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ، ولسنا بمنصرفين حتى نخلعك أو تلحق ارواحنا بالله . »

ثم حاصروه رجاء ان يخلع نفسه ، وشددوا هذه المرة في الحصار عليه ، فلم يدعوا احداً يدخل عليه حتى عليّ بن ابي طالب الذي كان قريباً من قلوبهم مهاباً فيهم .

فحار عثمان في امره ولم ير وجهاً للخلاص مما وقع فيه ، وكتب الى معاوية وابن عامر وامراء الاجناد يستنجد بهم ويأمرهم بالاستعجال في ارسال الجنود اليه . فأرسل معاوية جماعة من الشام على رأسهم حبيب بن مسلمة الفهري ، وأقبل مجاشع بن مسعود السلمي من البصرة مع جماعة اخرى .

●

وسبق أجناد البصرة جيش الشام ، فوصلوا الى الربذة

في طريقهم الى المدينة ، فاذا بفارس مقبل من ناحيتها شطر المشرق ، فاستوقفه البصريون وسألوه عما صار اليـه أمر الثائرين .

فقال الفارس : « لقد لبثوا في الحصار حيناً . . . منهم من يقول : « مـاذا تنتظرون به ؟ » ومنهم من يقول : « لا تعجلوا به عساه ينزع » . . .

واستطرد الفـارس المديني وهو في اقصى الاضطراب والتأثر فقال : « حتى اذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة نفد صبرهم وراموا الدخول عليه ، فاغلق الباب من دونهم ، فأحرقوه واحرقوا السقيفـة التي عليـه ، وتخطوا الناس الذين وقفوا يجالدونهم ويدافعون عن عثمان وفي مقدمـة هؤلاء المدافعين الحسن والحسين ولدا الامـام علي ، ثم اقتحموا الدار فملأوها ، ودخلوا عليه فقالوا له مرة اخرى : « اخلعها وندعك ! » فقال : « لست بخالع قميصاً كسانيه الله ! »

قال المديني : « وكنت قـد التحقت بالقوم وتغلغلت بينهم ، وكان محمد بن ابى بكر في طليعتهم ، فاذا بـه يأخذ بلحية عثمان ويقول له : « أخزاك الله يا نعثل ! » فقال : « لست بنعثل ، ولكني عثمان وامير المؤمنين » فقال : « ما اغنى عنك معاوية وفلان وفلان . . » فقال عثمان : « يا ابن اخي دعها من يدك ، فما كان ابوك ليقبض عليها » فقال : « لو عملت ما عملت في حياة ابي لقبض عليهـا ، والذي اريد بك أشد من قبضي عليهـا » فقـال : « استنصر الله

عليك واستعن به » فتركه وخرج . »

وقال اناس ان محمد بن ابي بكر لم يغادر الحجرة الا وقد طعن جبين عثمان بمقص كان معه ، ولكني لم أر ذلك ، بل رأيت سودان بن حمران وأبا حرب الغافقي وكنانة بن بشير التجيبي وقتيرة بن وهب السكسكي قد ثاروا وانقضوا عليه ، فضربه الغافقي بعمود كان في يده ، وهمّ سودان بان يضربه بسيفه ، فأكبت عليه امرأته نائلة واتقت السيف بيدها فبتر أصابعها ... وأقبل الآخرون فهجموا عليه .

لقد كان مشهداً مفجعاً رهيباً ما تزال صورته ماثلة في ذهني حتى لأكاد أراها أينما نظرت ... اقبل اولئك الثائرون فانقضوا عليه ولم ادر من الذي قتله منهم ، ولكني رأيته يقع مضرجاً بالدم ، وسمعت عويل زوجتيه نائلة وام البنين ، وشاهدت هاتين المرأتين الطاهرتين تلقيان بنفسيهما عليه وتتشبثان به فتمنعان الثائرين الذين جنّ جنونهم من التمثيل به . »

قال الفارس المديني وقد أحاط به البصريون يستمعون اليه دهشين وقد تولاهم الذعر والهول : « رحم الله عثمان فقد قتله ضعفه لعشيرته وانحرافه عن سنة سلفيه وسنة الرسول في محاربة البغي والاشفاق من مهاونته والسكوت عليه ، وما كان أغناه عن ذلك واغنى شيخوخته الفانية عن هذه النهاية المؤثرة ! »

وأجال الرجل طرفه فيما حوله واستطرد : « ورحم الله ابا ذر

فقد صدقه القول وأخلص له النصح فانكر سعيه وبطش به بطش جبار ! »

ثم التفت نحو أجناد البصرة وقال : « لقد رأيت عثمان بعيني وهو يتوسل اليهم قبل مصرعه قائلاً لهم : « لا تقتلوني .. فانه لا يحل لكم الا قتل ثلاثة : زان بعد احصان ، او كافر بعد ايمان ، أو قاتل نفس بغير حق » فأجابوه : « ان الله جعلك بلية ابتلى بها عباده ، ولقد كانت لك قدم وسابقة ، وكنت أهلاً للولاية ، ولكنك أحدثت ما تعلمه ، ولن نترك اليوم اقامة الحق عليك ، مخافة الفتنة عاماً قابلاً .. وأما قولك لا يحل دم الا باحدى ثلاث ، فانا نجد في كتاب الله اباحة دم غير الثلاثة : دم من سعى في الأرض بالفساد ، ودم من بغى ثم قاتل على بغيه ، ودم من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه ، وقد بغيت ومنعت الحق وحلت دونه ، ولم تقد من نفسك ولا من عمالك ... » ثم انقضوا عليه فصرعوه ... ألا فليرحمه الله وليرحم أبا ذر ! »

قال البصريون : « فمن هو هذا الرجل ، وما شأنه مع عثمان ، ومالك كلما ترحمت على هذا ترحمت على ذاك ؟ »

فسار المديني نحو كومة من الحجارة قد عبثت بها سوافي الرمال ، وقال :

« انه أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله وحواريه .. لقد سمعته يخاطب الناس ويخاطب عثمان بمثل الكلمات التي

سمعتها من أفواه الثائرين . . وشهدته يوم سيّره معاوية من الشام يقبل الى المدينة على بعير أعجف وقد انهكته الالام والأسقام ، فلما رآنا ، وكنا عصبة من المؤمنين في اسفل جبل سلع ، هتف بنا : بشروا أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ! ورددها غير مرة . . ثم شرفني الله بحضور وفاته هنا في هذه البقعة الجرداء التي نفي اليها ، فواريته الثرى بيدي تحت هذه الكومة من الحجارة ، وقلت على قبره انه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفي ونفي ، وحرم واحتقر ، ثم مات وحيداً غريباً . . وهتفت من أعماق قلبي : اللهم فاقصم من حرمه ونفاه من مهاجره وحرم رسول الله ! فما هي الا سنوات ثلاث حتى رأيت الثورة التي أنذر بها وشهدت بعيني مصرع عثمان ، فقلت لنفسي : يمين الله لن ابيتن ليلتي حتى أقف على قبر أبي ذر واستمطر له الرحمة ، انه كان عفيف النفس صادق اللسان ناصراً للحق تقياً .

فتمتم البصريون خاشعين : « يرحمه الله » !

للتاريخ

●

تتشابك أحداث التاريخ تشابكاً معقداً ، وتختلف القيم الانسانية بالنسبة الى كل من هـذه الاحداث اختلافاً يضل معه اولئك الذين ينظرون الى هذه القيم كأشياء قائمـة في ذاتهـا غير مرتبطة بزمان ومكان معينين ، كما يضل اولئك الذين ينظرون الى الاشياء او الاشخاص من جانب واحد ، فهي في نظرهم اما شر كلها واما خير .

ومن هـــذه الاحداث التاريخيـة المعقدة موقف ابي ذر الغفاري من عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان ..

فمن ينعم النظر في هـــذا الموقف ، يرى لاول وهـلة أميراً لين العريكة كثـير الاحسان ، اشتهر بالتقى والعفـة وعرف بالحلم والجود ، ولكنـه كان يفتقر الى الحزم الذي يستطيع ان يدير به امور دولة مترامية الأطراف ، وقـــد بدا ضعفه هـــذا على اشده في انصياعه لاعلام عشيرته بني امية واطلاقه ايدي الولاة منهم في شؤون البلاد واباحتـه لهم تـلك الضياع وتشييد القصور في الولايات الاسلاميـة ، بحيث أوجـد طبقـة ارستوقراطيـة من أصحاب الـثروات

الضخمة ، وهو أمر خرج به على سنة سلفيه لأن الاراضي التي تملكها اولئك الولاة هي بحكم نظام ابي بكر وعمر وقف على عامة المسلمين يشركون في غلتها جميعاً .

ويرى الناظر ايضاً والياً من اولئك الولاة ، ومن اكثرهم استغلالا للحرية التي تمتعوا بها في عهد ذلك الامير الواسع الحلم ، واستخدموها لتوطيد مراكزهم وبناء امجادهم الشخصية ، يتعدى ذلك كله الى الاستئثار بالفيء والغنائم التي كان الرسول وخليفتاه ابو بكر وعمر يوزعونها على عامة المسلمين ، فيخص بها نفسه وقواده وخزائن دولته قائلًا ان هذا المال هو مال الله ، وأن من حقه هو ان ينفقه في الوجوه التي يريدها لأنه الأمين على بيت المال والمسؤول عنه ، ويعمد الى اشادة القصور والحصون والجنائن ، واحاطة نفسه باسباب الترف الباذخ ورغد العيش ، بينما الناس يتضورون من الجوع ، والمقاتلة الذين يغامرون بارواحهم في سبيل الدولة يحرمون حتى من الأسلاب التي كانت تعطى لهم من قبل .

ثم نرى اماماً جليلًا من اصحاب الرسول ، يقف في وجه هذا الوالي وذلك الأمير ، متحدياً سياستهما تلك ، مطالباً اياهما بالرجوع الى سنة السلف في اقرار العدل والمساواة بين المسلمين ، قائلًا ان مال الدولة يجب ان يسمى مال المسلمين لا مال الله ، وان يوزع على أصحاب الحق فيه ، وأن على الاغنياء ان يردوا فضل أموالهم على الفقراء المدقعين ، ناهياً عن ان تكون الثروة غرضاً

مقصوداً لذاته ، منذراً من يكنز المال ويضن عن انفاقه في سبيل الخير بعذاب اليم ..

تلك هي الصورة التي تبدو لأول وهلة ، لمن ينعم النظر في موقف ابي ذر من عثمان ومعاوية ، وهي صورة لا تدع مجالا للشك في أن ذلـك الثائر الجريء في سبيل العـــدل والمساواة ، قد كان على حق في ثورته عـــلى أمير ضعيف العزيمة ووال مستبد بأقدار رعيته مغتصب للحقوق التي ظلت تعطى لهم ثلاثين سنة ، وفي انتصاره للطبقة العامـــلة التي تضخمت على حسابها ثروات الطبقة الارستوقراطية التي اوجدها معاوية وعثمان ، وفي دعوته الملحة لأنصاف تلـــك الأكثرية المغبونة في عملها والمسلوبة في حقها .

وهذه الصورة النبيلة بالذات هي الصورة التي رسمناها في كتابنا هذا ، بل هي الصورة التي حدتنا الى وضع هـــذا الكتاب وحملتنا عـــلى ان نسلك أبا ذر الغفاري في ثبت الاعلام الخالدين الذين كافحوا في سبيل الحرية والعـــدالة والمساواة ونذروا لها حياتهم التي يعلو بمثلها شأن الحياة .

ولكن من حق التاريخ علينا أن ننظر الى وجـه آخر من وجوه هذه الصورة النبيلة التي انتزعناها من مكانها الحق بين الاحداث التاريخية التي رافقتها أو تبعتها ..

وفي الواقع ، اننا ما نكاد نعيد هذه الصورة الى مكانها هذا من التاريخ ، حتى يطالعنا منها وجه جديد ، يبدو فيه موقف معاوية وزمـلاؤه هو الموقف التقدمي المرافق لسير

التاريخ ، مهما كانت الصفات الشخصية التي اتصفوا بها والمظالم التي كابدتها الاكثرية العاملة في عهدهم ، بينا يبدو موقف ابي ذر الغفاري موقف المتخلف عن موكب التاريخ ، رغم ما اتصف به هو من نبل ومروءة واستقامة ليس لها مثيل ، ورغم ما انطوت عليه دعوته ، في جوهرها ، من مثل انسانيه رفيعة ما تزال الانسانية تحلم بها وتكافح في سبيلها حتى يومنا هذا .

ذلك ان أبا ذر انما كان يمثل مجتمع البداوة ، ومن فضائل هذا المجتمع وضح السريرة وصدق اللهجة والجرأة في القول والتمسك بالحق والحمية أن يجري عليه ذل أو ضيم ، ومن نقائصه الخشونة والسذاجة والقناعة بالقليل والرضى من حطام الدنيا بالكفاف .

اما معاوية بن ابي سفيان فكان يمثل دور الانتقال الذي مر به العرب من طور الحياة البسيطة المتقشفة الى طور الحياة الرخية المترفة ، ومن مجتمع البداوة الذي لا يعرف الثبات والاستقرار ، الى المجتمع الحضري الاقطاعي الذي يرتبط الناس فيه بالاراضي التي يزرعونها وبقصر الامير الذي يحميهم ، ومن حكومة أقرب الى الدين منها الى السياسة ، الى حكومة اقرب الى السياسة منها الى الدين ، ومن دولة مضطربة الدعائم تسيطر عليها الروح العشائرية والانظمة الإرتجالية ، الى دولة وطيدة الاسس متماسكة البنيان لها انظمتها الادارية ومؤسساتها العمرانية وسلطتها المركزية ،

دولة كانت فيما بعد مهداً للحضارة العربية الزاهره التي وصلت ما انقطع من سير المدنية البشرية في العهد الذي سمي في اوربا بعهد الظلام .

لقد كان معاوية بن ابي سفيان يمثل دور الانتقال هذا ، الذي لم تكن قد انصهرت فيه العصبيات والجنسيات والخلافات المذهبية والمطامح الفردية العنيفة ، وكان يمثله بكل ما ينبغي له من مرونة ودهاء وتجربة ، ومن حزم واقدام وبطش أيضاً .. وكان يهمه الوصول الى غرضه باي ثمن كان وبأية وسيلة كانت ، ولو سار اليه على حقوق مقدسة تنتهك ودماء بريئة تسفك .

بيد أن مثل هذا القول انما يقوله المؤرخ بعد نيف والف سنة ، وهو ينظر الى مكان ابي ذر ومعاوية من التاريخ في ضوء النظريات العلمية الحديثة في علم الاجتماع وتطور التاريخ ، ولا ريب في ان معاوية وأبا ذر ما كانا ينظران مثل هذه النظرة الى الامور ، فقد خدم معاوية المجتمع العربي بينما كان يخدم شخصه وأصحابه وأهل بيته ، وهو لم يضح بخصومه ويحتكر السلطة ويستأثر بحقوق المستضعفين وفي يقينه انه انما يصنع ذلك في سبيل الدولة العربية التي وضع نواتها الاولى . بينما وجد أبو ذر ظلماً فثار عليه ، وحقاً مهضوماً فطالب به ، ورأى الامراء المستبدين يحملون الحجارة لبناء قصورهم على ظهور الرجال العراة الجائعين فاستنكر ذلك ، وكان من واجبه ان يستنكره كامرئ عادل شريف ، لانه

لم يكن ليخطر له في بال ان هذه القصور ، التي تبنى على هـذا الغرار ، ستكون الدعـائم الاولى للحضارة العربية العظيمة التي بسطت فيما بعد ظلها السابغ عـلى المشرق والمغرب ، ولم يكن اولئـك الامراء انفسهم ليفكروا في ذلك أو يقصدوا اليه .

وهكذا تفرض شخصية ابي ذر الغفاري ذاتهـا كشخصية انسان نبيل ومجاهد مقدام وثائر على الظلم ومناضل في سبيل الحق والعدل ، رغم ان دعوته لم تكن بالدعوة التقدميـة بالنسبة الى مكانها من التاريخ ، كما تفرض شخصية معـاوية ابن ابي سفيان ذاتها ، كشخصية اداري عظيم ومؤسس دولة خطيرة الشأن ، رغم ان يـده التي بنت هذه الدولة كانت مضرجة بدماء الابرياء والمستضعفين .

ويبقى علينا ، نحن الاحفاد ، ان نقتبس عن هـذين الرجلين الكبيرين ، وعن غيرهمـا من اسلافنا العظام ، كل ما ينفعنا في سيرتهم الهادية ، ويساعدنا في بناء مجتمعنا العربي الحديث بروح العصر الذي نعيش فيه ، وفي اقامته عـلى اسس الحق والعدل والمساواة .

من كلمات ابي ذر

●

يا جاهل العلم تعلم العلم فان قلباً ليس فيـه شوق العلم كالبيت الخراب الذي لا عامر له .

يا باغي العلم ان هـذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر ، فاختم على فمك كما تختم على ذهبك وعلى ورقك .

ان الله قـد فضلك فجعلك انساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً ، واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة .

بعض ما رواه من الاحاديث الشريفة

●

في « اسد الغابة » بسنده عن ابي ذر عن رسول الله عن جبريل عن الله تبارك وتعالى انه قال : يا عبادي قد حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

في المستدرك بسنده عن صدقة بن ابي عمران بن حطان : قال اتيت ابا ذر فوجدته في المسجد مختبئاً بكساء اسود وحده ، فقلت يا أبا ذر ما هذه الوحدة ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الوحدة خير من جليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة ، واملاء الخير خير من السكوت ، والسكوت خير من املاء الشر .

في كتاب الطبقات الكبير بسنده عن ابي ذر قال : ان خليلي عهد الي ان اي مال ذهب أو فضة اوكي عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله . وقال : ليس من وعى ذهباً أو فضة يوكي عليه الا وهو يتلظى على صاحبه .

من وصايا النبي له

●

في « الخصال ومعاني الاخبار » بسنده عن عتبة ابن عمير الليثي عن أبي ذر من وصايا عديدة اوصاه بها النبي : « ... قلت يا رسول الله أي المؤمنين اكملهم ايماناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً . قلت : فأي المؤمنين اسلم ، قال : من سلم الناس من لسانه ويده . قلت : فأي الهجرة أفضل ، قال : من هجر السيئات . »

ومن وصاياه عليه السلام له :

عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتي .

احب المساكين وجالسهم .

صل قرابتك وان قطعوك .

لا تخف في الله لومة لائم .

قل الحق وان كان مراً .

اكثر من يدخل النار المستكبرون .

من كان له قميصان فليلبس احدهما وليكسُ الآخر اخاه .

يردّك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتي

وكفى به عيباً ان تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، او تجد عليهم فيما تأتي .

لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق .

من وصية النبي الطويلة له

●

رواها الطبرسي في « مكارم الاخلاق » والشيخ الطوسي في اماليه باسنادهما الى ابي حرب بن ابي الاسود الدؤلى عن أبيه :

« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ .

اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

اياك والتسويف بأملك فانك بيومك ولست بما بعده ، فان يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم ، وان لم يكن غد لك لم تندم على ما فرطت في اليوم .

اياك ان تدركك الصرعة عند العثرة ، فلا تقال العثرة ، ولا تمكن من الرجعة ، ولا يحمدك من خلفت بما تركت ، ولا يعذرك من تقدم عليه بما اشتغلت .

كن على عمرك اشح منك على درهمك ودينارك .

ان شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عالم لا ينفع بعلمه ، ومن طلب علماً ليصرف به وجوه الناس اليه لم

يجد ريح الجنة .

من ابتغى العلم ليخدع به الناس لم يجد ريح الجنة .

اذا سئلت عن علم لا تعلمه فقل لا اعلمه تنج من تبعته ، ولا تفتِ بما لا علم لك به تنج من عذاب الله يوم القيامة.

يطلع قوم من اهل الجنة الى قوم من اهل النار فيقولون ما ادخلكم النار وقد دخلنا الجنة لفضل تأديبكم وتعليمكم ، فيقولون انا كنا نأمر بالخير ولا نفعله .

من وافق قوله فعله فذلك الذي اصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فانما يوبخ نفسه .

دع ما لست منه في شيء ، ولا تنطق فيما لا يعنيك ، واخزن لسانك كما تخزن ورقك .

ان القلب القاسي بعيد من الله تعالى ولكن لا تشعرون .

ان الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل الاماني .

ان الرجل ليعمل الحسنة فيتكل عليها ويعمل المحقرات حتى يأتي الله وهو عليه غضبان ، وان الرجل ليعمل السيئة فيفرق منها فيأتي الله عز وجل آمناً يوم القيامة .

ان العبد ليذنب فيدخل بذنبه ذلك الجنة ، فقلت ، وكيف ذلك بابي انت وامي يا رسول الله ، فقال : يكون الذنب ذلك نصب عينيه تائباً منه فاراً الى الله عز وجل حتى يدخل الجنة !

الصلاة عماد الدين واللسان اكبر ، والصدقة تمحو الخطيئة

واللسان اكبر ، والصوم جنة من النار واللسان اكبر والجهاد نباهة واللسان اكبر .

حب المال والشرف أذهب لدين الرجل من ذئبين ضاريين في زربة الغنم فأغارا فيها حتى أصبحا فماذا ابقيا ؟

اعلم ان كل شيء اذا فسد فالملح دواؤه واذا فسد الملح فليس له دواء (هذا المثل لعلماء السوء) .

اترك فضول الكلام ، وحسبك من الكلام ما تبلغ به حاجتك .

لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه اشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من اين مطعمه ومن اين مشربه ومن اين ملبسه أمن حلّ ذلك ام من حرام .

من لم يبال من اين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من اين ادخله النار .

مراجع الكتاب

●

علي بن احمد ابن الأثير : الكامل في التاريخ

〃 〃 〃 : اسد الغابة في معرفة الصحابة

الحافظ بن عبد البر الاندلسي : الاستيعاب في أخبار الصحاب

ابو منصور عبدالقادر البغدادي : الفرق بين الفرق

بندلي جوزي : تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام

السيد محسن الأمين الحسيني : اعيان الشيعة

الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي

شمس الدين احمد بن خلكان : وفيات الأعيان

احمد بن داود الدينوري : الأخبار الطوال

عبد الحميد جودة السحار : ابو ذر الغفاري صاحب رسول الله

عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي : تاريخ الخلفاء

محمد بن سعد : كتاب الطبقات الكبير

ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الامم والملوك

شهاب الدين بن علي العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة

الشيخ باقر بن محمد القمي : بحار الأنوار

ابن ابي الحديد عزالدين المدائني : شرح نهج البلاغة

السيد علي بن الطاهر المرتضى : أمالي

ابو الحسن بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر

ابو محمد عبدالملك بن هشام : كتاب سيرة رسول الله (ص)

الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد

فهرست

٨١ — ١١ — ٤٧